

دم الزهور

أوراق أدبية

محمد رمضان الأغا

حقوق الطبع والتوزيع محفوظة

إهداء

إلى روح والدي
في ذكراه الثالثة عشرة
الذي علمني الصبر و القناعة والتعافل
و "الحنين" إلى "أرضنا"

إلى روح أمي في ذكراها العاشرة
يوم كنت معها على جبل عرفات
فاستجاب الله أمنيبتها
أن تدفن بجوار "أمهات المؤمنين" و "الصحابيات" رضي الله عنهن
عدت يومها ب"معية" ربي
يؤرقني و ما زال "حنين" إلى ثراها

اللهم اجمعنا وإياهم والمؤمنين في مستقر رحمتك

مُتَلَمَّتْ

التقيته في المقر الجديد لإبداع في خانيونس ، تحدثنا حول
رابطة الأدباء والكتاب ، قال على استحياء كعادته: لي بعض
المحاولات!! أثار فضولي ... دعني أراها ... صحبتته إلى منزله ..
دفعها لي .. نسخة وحيدة لديه .. وكالكثير من المبدعين الذين لم تر
أعمالهم النور فيكتبون ويودعون ما كتبوه أدراجهم ، وتظل حبيسة
الأدراج رغم قيمتها الأدبية التي تفوق العديد العديد مما تتداوله الأيدي من
أعمال لأن (أصحابها) لديهم الاستعداد للمغامرة فيدفعونها للنشر ... ولكن
المبدع الحقيقي لا يملكها، بل الإشفاق على ثمرات مشاعره وأحاسيسه من
ألا يكثر لها فنكون صدمة قد تؤذي مشاعرهم وأحاسيسهم، وتبين لي
- بعد نظرة خاطفة - أن مبدعها يملك أرقى المشاعر ، وكمن فوجئ بما
لا يتوقع وافق على أن تأخذ طريقها (للتحكيم) وإذا ما راققت للمختصين
فلنتشر، وهكذا كان .. أخذتها ... قرأتها ... شددتني صورها الرائعة
المكتفة، لغتها السريعة المغلفة برمزية شفاقة غير العادية.. التكثيف الذي
يتحدى عقل القارئ وقلبه وكل حواسه لإدراك جمالياته.. منظومة القيم
المتناسقة الجريئة ذات النكهة الأصولية المعاصرة، وإن شئت فقل: تزيينه
حمرة الحياء، أو حمرة وردة الجوري التي توشك على نشر عبقها.. هذا
ما وجدته في هذا العمل الإبداعي الراقي الذي فاضت به مشاعر الرائع
الأستاذ الدكتور محمد الأغا، المذهل بصمته، وكأن عقله في شغل دائم في

التقاط الصور، التي تحولت إلى هذا الإبداع ، والمذهل أيضا في تحويل الأرض إلى جنان خضراء ذات ثمار وأزاهير رغم القيد والسجان والحصار، وكأنها اللغة التي يعبر بها عن نفسه وما يتبقى له منها، نثرها على الورق، فكان هذا الإبداع الذي حظي بالرضا بإجماع المحكمين الصارمين: الأستاذ الدكتور: جهاد العرجاء، والأستاذ الدكتور: موسى أبو دقة، والأستاذ الدكتور: عبد الخالق العف، وقالوا جميعا: الله.. وهم الحريصون على ألا يدفعوا للنشر إلا الأعمال الأكثر تميزا وإبداعا، وفق معايير دقيقة وحساسة اعتمدها رابطة الأدباء والكتاب الفلسطينيين بما تتناسب من سمو الهدف وسمو فلسطين؛ أرضا وإنسانا وهوية.. وأخيرا فإنه لي شرفني جدا أن أقدم هذه المشاعر والأحاسيس والقيم التي تضمنتها كلمات المبدع الرائع وزير الزراعة الفنان الأستاذ الدكتور: محمد رمضان الأغا إلى قارئ ذي مشاعر وأحاسيس راقية، دائم البحث عن كل جميل وممتع، خال من الضجيج والتكلف والتزاويق والحشو..

د. عطا الله عبد العال أبو السبح
وزير الثقافة الفلسطيني الأسبق
رئيس رابطة الأدباء والكتاب الفلسطينيين
غزة - أغسطس 2010 م

مقاربة نقدية في أدب محمد رمضان

بقلم : نزار بهاء الدين الزين

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على أشرف المرسلين،
وعلى آله وصحبه أجمعين، وبعد

تتناول هذه الدراسة سبعة من أعمال الأديب المبدع محمد رمضان

الأعا:

- 1 - الطاحونة 2 - دم العرايس 3 - هدية شارون 4 - الطفلة العاربية
- 5 - العصفورة 6- دم الزهور 7 - عطور الفجر

-1-

الطاحونة

يصور لنا الكاتب في قصته (الطاحونة) المأساة الإنسانية المتواصلة،
التي يعانيها الفلسطينيون، منذ ثلاثينيات القرن الماضي؛ بلسان جدة
عجوز كُتِبَ لها أن تعيش حلقات المأساة واحدة إثر الأخرى:

*. " وهي تدور الطاحونة بيدها اليمنى، يدور أمام ناظرها شريط حياتها

الطويل، من نكبة إلى نكبة ومن هجرة إلى هجرة ومن حزن إلى حزن "

* " - كان بيتنا الأول في المجلد، - وكان بيتنا الثاني في مخيم رفح بعد

الهجرة

- ولماذا جئت إلى جباليا يا جدتي؟

- لقد هدموا بيتنا في رفح "

ثم ينقلنا شريط الذكريات إلى بدايات المقاومة متمثلة بعز الدين القسام ورفاق دربه فرحان السعدي ورشيد حنبلي وسواهم:

* " لقد كان المجاهدون يأتون عند جدي في ساعات السحر، وكنت أسمع همساتهم وأتظاهر أنني لا أفهم شيئاً منها !

آه... كم أكل فرحان السعدي من فريكة خرجت من هذه الرحى وما زلت أذكر - كما أراكم - كيف كان والذي يحمل الخبز والجبن والزيت للمجاهدين في الأحرش "

وبينما كانت تطحن العدس والبرغل والفريكة بين حجري رحى طاحونتها اليدوية التي قادت "من صخر البلاد"، مقابل دريهمات تسد بها الرمق، كانت تحكي لأحفادها ورفاقهم من أولاد الحيران، وللعصافير الجريئة التي ما فتئت. " تلتقط ما تنائر من بقايا حبوب " تحكي لهم عن النكبة بمفرداتها وأثارها .

لقد نجح الأديب محمد رمضان في (الطاحونة) ببلوغ هدفه من خلال تعبيرات خالية من التكلف، وببساطة وشفافية ويسر ! يرافقتها جميعاً تصوير بديع :

* "جلست جدتي أم أحمد كمليكة بثوبها الفلسطيني المطرز"

* " يتجمع حولها أبناءها وأحفادها الذين جاوز عددهم المائة، يقبلون يديها وخديها ويتبركون بالنور الذي يسطع من وجنتها "

* " تتربع أمام بيتها الثالث في مخيم جباليا على جاعد وثير من جلد خروف ذبحه ابنها البكر في آخر عيد أضحى، وإلى جانبها مصحفها

الكبير وعصا لوز تتوكأ عليها أو تهش بها على أطفال الجيران أو أحفاد
قد يضايقونها أحيانا "

* " يتحلق حولها صبية المخيم يستمعون لحكاياها ويدورون حولها كما
الرحى "

لقطات بيد مصور بارع يختتمها بلحظة النهاية الحزينة :
* " دار الأطفال دورتهم، وعادوا، فوجدوا جدتهم منحنية على الطاحونة
كأنما هي تقبلها، نصف وجهها يستلقي على الطاحونة والنصف الآخر
يستلقي على مصحفها ذي الأوراق الصفراء " .

-2-

دم العرايس

في دم العرائس، يستعير الكاتب حكايات كلية ودمنة ، ليصل إلى هدفه
في تصوير بشاعة الاحتلال وممارساته اللاإنسانية .

تمثل الفراشات الشعب الفلسطيني بجميع فئاته: " في وادي الفراش
"المقدس"، تعيش آلاف من الفراشات، في مودة ومحبة وصفاء ونقاء "

بينما تمثل الذئب الهجمة الصهيونية الشرسة مذ قرر الصهاينة إحلال
شئتهم محل الفلسطينيين العرب:

" - ما رأيكم إذن في دم الفراشات الصغيرة ؟

- آآه ه... إنه من أذ أنواع الشراب ، لقد دعاني "تعبان" يوما على حفلة كان فيها هذا الدم هو المشروب الرئيسي ، ما زال طعمه الرائع في فمي "

وتعبيرا عن عدم تفريق العدو بين صغير أو كبير في هجمته المسعورة، يحرّض أحد الذئاب رفاقه قائلا:

" - إذن علينا أن نذهب إلى وادي الفراش ، ونقف أمام المدرسة الابتدائية ونحاصرها ونصطاد الفراشات الصغيرة لذيدة الطعم "

وفي أعقاب كل ضربة، يلملم الفلسطينيون أنفسهم ويضمّدون جراحهم، ثم يصر من بقي منهم على قيد الحياة، على الصمود والمقاومة:

* "أفلتت بعض الفراشات من بطش "العدو" وناره السوداء

اختبأت في أنفاق تحت الأرض

بين "ظلمة الدنيا" و" نور إيمانها" بعدالة قضيتها وقداستها

وظفقت في لملمة صفوفها وجراحاتها

صنعت صواريخ بدائية جدا

من بقايا المعدن والورق والكرتون"

ويختتم محمد رمضان الأغا قصته بأمل يداعب مخيلة كل فلسطيني

وعربي :

" عادت الفراشات إلى مسقط الرأس في وادي الفراش المقدس وهي تنشد

نشيد العودة "

أفلح محمد رمضان الأغا ببلوغ هدفه، ونجح بتوظيف اللا بشر في

خدمة غرضه؛ إلا أن رموزه كانت من الشفافية بحيث كشفت عن هدفها

بدون عناء، وهذا بحد ذاته أحد نجاحاته .

وأستشهد على ذلك بتعليق للأديب عبد الهادي شلا قال فيه:
" ما أجمل أن ترى فراشة تتنقل بين الزهور وأنت تغسل هموم يومك في
حديقة الوطن الكبير، وما أفسى أن ترى خستهم تمتد لتغتال وداعتها
وتمزق رقتها إربا إربا، وتنتثر جسدها الضعيف لتشبع شهواتهم وغرائزهم
الحيوانية.."

- 3 -

هدية شارون

بعد أن حلق بنا الأديب محمد رمضان الاغا في عالم الرمزية من خلال
كليلته ودمنته، يعود بنا في (هدية شارون) إلى عالم الواقع المؤلم، فغدير
التي أكملت سنيها التسع لتقف على أعتاب العشر، تثيرها المناسبة فتبدأ
باتخاذ العدة للاحتفاء بها كما وعدتها أمها:
* " تعطيها أمها بضعة دراهم لتشتري فيلما لالتقاط صور عيد ميلادها"
تقول لزميلاتها :

* " - انتو اليوم معزومات على حفلة عيد ميلادي "
* " - استلقت كاميرا خالي "أبو طارق" وماما راح تحضر أحلى كعكة "
ثم يصور لنا الكاتب ببراعة حال التلميذات وهن في طريقهن إلى
المدرسة جذلات:

* " سارت الزهرات في طريقهن إلى المدرسة، يسرعن في المشي تارة،
وبيطنن أخرى، وقطرات الندى تغسل جباههن الرقراقة كالنسيم، والشمس
ترسل باكورة أشعتها الصباحية لتقبل أجمل الوجوه التي تتبختر على
الأرض التي بارك الله فيها وحولها "

ثم يذكرنا فجأة أننا ما زلنا تحت وطأة الحصار :

* " ينظرن إلى أبراج المراقبة التي يعتليها جنود الاحتلال وتشرف على المخيم "

ويبدأ جنود العدو بإطلاق الرصاص، إلا أن الصغيرات، لا يأبهن، فقد اعتدن على عربدتهم، شأنهم في ذلك شأن سكان المخيم جميعا:

* " الجنود يطلقون النار في كل اتجاه وفي كل وقت، وأهل المخيم اعتادوا على أصوات الرصاص والقذائف والهدم والصراخ العبري الحاقد... الدبابات تروح وتجيء وهي تطحن الأرض طحنا وتثير في مؤخرتها دخانا وغبارا يعمي العيون ويزكم الأنوف..."

وغير هيابة، تمضي غدير باستعدادات عيد ميلادها، فتتوجه إلى استديو القدس لتشتري الفيلم الذي سيحفظ تلك الذكرى المبهجة، عندما يستأنف وحوش الأبراج إطلاق النار:

* " تهرب الزهرات كل في اتجاه
بعضهن إلى المدرسة
وبعضهن خلف الجدران
تسرع غدير لكن الرصاص أسرع
تتدحرج غدير على الأرض "

وإمعانا بوحشيتهم يفرغ أحد جنودهم خزنة رشاشه كاملة في جسدها الغض فيمزقها إربا، وادعى بأن الشهيدة كانت تحمل في حقيبتها متفجرات، جاء ذلك التبرير السخيف، على لسان إذاعتهم:

* " يعلن راديو "إسرائيل" أن طفلة قتلت في مخيم رفح وقد كانت تنوي تنفيذ عملية انتحارية حيث كانت تحمل على ظهرها شحنة متفجرات"

وإظهارا لديمقراطيتهم الزائفة أمام العالم، تمت محاكمة سورية للجندي
القاتل:

* " تمت محاكمته أمام محكمة عسكرية وقررت الحكم عليه بالسجن لمدة
"شهر" مع وقف التنفيذ !!! "

نص سردي كلاسيكي مفعم بالصور القاتمة لمأساة متواصلة يعيشها
الفلسطينيون، احتلال لا يفرق بين صغير وكبير أو بين أنثى وذكر، الحقد
الكريه الذي يعيش في نفوسهم العدوانية، يجعلهم يرون في كل
فلسطيني - حتى لو كان طفلا - إرهابيا يسعى لاستئصال إسرائيلهم .

- 4-

الطفلة العارية

في هذا النص، يعزف محمد رمضان على أوتار قلوب قرائه لحنا عاطفيا
حزينا، يرغم عيونهم على بذل الدمع السخي، لحن يحكي من خلاله
عذابات أطفال المخيمات.

فراس طفل السابعة من هؤلاء، يقضي نصف يومه في المدرسة ونصفه
الأخر يلعب والدته التي تتقبل عبثه بصدر حان فتسايره أحيانا وتتجاهله
أحيانا أخرى:

" تبحث أمه عنه تارة تحت السرير وتارة أخرى يختبئ منها في دولااب
الملابس وثالثة يتوارى وراء باب هذه الغرفة أو تلك ينتظر أن تبحث عنه
أمه هنا أو هناك في لعبة يعشقها كل يوم وحينما يطول انتظاره لها وهو

في مخبئه السحيق يقلد أصوات القطط أو العصافير كأنما يستحث أمه للإسراع في البحث عن عصفورها "

وفجأة تكتشف فيه رجولة مبكرة، طفلها لم يعد ذلك اللعوب، طفلها أصبح يحس بمشاكل الآخرين ويحزن لحزنهم ويشقى لشقائهم:

" - أماه... هل سمعت... هل سمعت انفجارات الأمس؟ اليهود نسفوا بيت سلوى في المخيم الغربي ، واحترقت كل ملابسها ودفاترها وكتبها... وجاءت اليوم إلى المدرسة بلا شنطة وبملابس رقيقة وكانت أسنانها تصطك من البرد اصطكاكا. "

وكأم مثالية، تخرج أم فراس صندوق ملابس ولدها، ثم تترك له الخيار في انتقاء ما يشاء ليقدمه لزميلته سلوى :

" يتناول فراس "بلوزة" شتوية وبنطالاً جديدين، وطاقيّة من صوف لم يلبسها بعد وملابس داخلية شتوية جديدة، وشمسية صغيرة أهداها إليه خاله قبل أيام،

تكوي أمه الملابس، تضعها في حقيبة مدرسية صغيرة، يفرح فراس ويقول:

- كل هذا لـ "سلوى" يا أمي؟! "

وفي المدرسة تحييه المعلمة وتكبر فيه أريحيته المبكرة، أما سلوى فتقابل كرمه بابتسامة عريضة :

" ترتدي "سلوى" الملابس الجديدة، وتبتسم ولا تسعها الدنيا فرحاً ! "

يتوقف فراس عن اللعب ويتحول تفكيره إلى هموم الآخرين، وبدلاً من اللعب مع أمه أخذ يلحف بالسؤال عليها:

* - ما هي دعوتك التي لا يعلمها إلا الله يا أمي؟ "

فتجيبه بعد أن تمنعت طويلاً:

" - يا رب هذا الكون، من رأى عذابات هؤلاء الأطفال في العراق وفلسطين وأفغانستان من حكام العرب والمسلمين وكل العالم وكان قادراً أن يفعل لهم شيئاً ولم يفعل، فلا تجعله يا رب يشم رائحة الجنة " دعوة، لعلها تخرج كل يوم من أفواه آلاف الأمهات، وفي موقف عاطفي غير مسبوق وتعبيراً عن نضوج فراس المبكر، ما أن تذكر أمه كلمة الجنة حتى يسجد بين قدميها : " وانحنى نحو قدميها يقبلهما، ويشم رائحتهما، ويمرغ خديه فيهما، ويعضهما حيناً آخر، قالت له أمه:

- " ماذا تصنع يا فراس؟

- أشم رائحة الجنة، قالت لنا المعلمة: ((الجنة تحت أقدام الأمهات))..."

ويختتم محمد رمضان بهذا الموقف الإنساني الشاعر مليحته الرائعة، أما أنا فأختتم بتعليق للكاتبة (فاطمة) تقول فيه: "عذابات أطفال لا تحتملها الجبال.. عري وفقر وإصرار على إمساك الشمس.. هدم ومخيمات.. ضحكات زهور لا تأبه لليد الشيطانية وترد عليها بالتحدي والتعاون.. ملائكة الجنة بضحكاتهم وبراعتهم تغلف المعاناة وكأنها تقول - ما بعد الضيق إلا الفرج - قصصك تلامس العقل والروح والوجدان لواقعيتها."

العصفورة

في هذه القصة فراس أيضا، طفل السابعة هذا يشفق على عصفور طفل،
لجأ إلى نافذته، فيطلب من والدته أن يحتضنه حتى زوال العاصفة
الماطرة في الخارج، ويظهر نضوجه جليا عندما تعلمه أمه أن كل
المخلوقات لديها بيوتها :

* " - نعم يا ولدي، فكل العصافير لها أعشاش كما كل الناس ، فهل
هناك أناسٌ يا ولدي ليس لهم بيوت؟ "

فيجيبها واثقا مما يقول :

* " - نعم يا أماه

- الذين هدم "اليهود" بيوتهم!!!! " "

تعبير غير مباشر لمأساة شعب يعاني من أشد أنواع الاستعمار، عدولا
يستهدف الناس فقط بل البيوت والبساتين وينابيع الماء .

وكعادته يصل محمد رمضان الاغا إلى هدفه تدريجيا بعد عرض صور
تعبيرية شائقة تشع بالإبداع:

* " تلبدت السماء بالغيوم الكثيفة المتراكمة فوق بعضها البعض واكفهر

وجهها الأزرق الجميل حتى غدا قاتما"

* "ها هو المطر ينهمر ويقفز "فراس" في غرفته مسرورا، ويصرخ

مناديا إخوته ليشاهدوا الأمطار تعزف أنشودة السماء "

* " ينتفض العصفور الصغير فتتطاير درر الماء عن ريشه الحريري

لتهبط إلى الأرض مع حبات المطر فتزيدها جمالا إلى جمالها "

وبينما كان العصفور ينثر درر الماء كان محمد رمضان ينثر درر كلماته الحلوة .

وأختتم بتعليقات بعض الأدباء:

* "عصفورتك متماسكة، واثقة الخطى، بعيدة عن التطويل والتهافت والوعظ، قريبة من الوجدان، تتساب ببسر عبر ذلك الطفل العصفورة، الممتلئ مطراً وفرحاً وثباتاً.

قد يتمكن الغزاة من ردم الأعشاش والبيوت والسقوف لكنهم لن يتمكنوا من هدم الأحلام والزغاريد المشبوبة. هكذا تعلنها العصفورة الطفلة والطفل العصفورة .

زكي العيلة " اديب و قاص فلسطيني

* " يأتي العصفور الذي يغني أنشودة الخير وفرح الأرض ليعطي قصتك التصاعد الدرامي المطلوب والمقصود، حين يحمي الطفل خدينه في البراءة ويطلقه بفضاء الحرية، لنصل إلى السؤال الذي تعرف الأم إجابته لكنها تريد أن تختبر وعي طفلها المبكر، الذي يقدم إجابة فيها كل الحزن والمرارة والإدراك، ودمت مبدعاً.

سليمان نزال" اديب وشاعر فلسطيني الدانمارك

* " لقد عصرت أجسادنا وأخرجت منها الحزن ..مطرا ينهمر ... نحن العصافير.. في غربتنا.. بيننا وبين الوطن ..زجاج شفاف ..نراه من خلاله فرسمه في قلوبنا زخارف وأهازيج فرح كبير ..وحزن عميق.. نمنحه للبيت الكبير (الوطن) من خفقان قلوبنا أنغاما وأحانا.. وعصافير .

عبد الهادي شلا "أديب و فنان فلسطيني كندا"

* " رصدك الإنساني يتفوق على نفسه.. وتففز من عمل إلى عمل نحو سمو إنساني لانهائي..
أخي محمد..
وكانك تعيش في قلب طفل.. ترى رؤاه وتحلم أحلامه وتلهو لهوه وتفرح فرحه..
وكانك اخترت الطفل ليكون رسولك نحو قلوب قرائك.
نجلاء محمود محرم " أدبية و قاصة من مصر

- 6 -

دم الزهور

ينقل لنا محمد رمضان في قصته (دم الزهور) - كعادته - الواقع المؤلم الذي يعيشه الفلسطينيون ويصيغه شعرا منثورا، بيتدئ - كعادته - بتصوير الحياة على طبيعتها، ومن خلال تصويره ثلاثي الأبعاد، يعرفنا على بطلته قصته سماح، ذات التسع سنوات: طلاقة لسانها، نضوجها، دقة ملاحظتها، معرفتها بالمخاطر حولها، مبادراتها التي تجعلها زعيمة لأترابها دون قصد منها:

* " - وهل هناك أحلى من أن يموت الإنسان شهيدا

تغنيان معا وبغفوية طفلتين بريئتين:

"على القدس رايعين... شهداء بالملايين"

تنتبهان فإذا عشرات من الأطفال يسرون خلفهما ويرددون نفس النشيد حتى طغى على صوت الزنّانة اللعينة"

* " تتخرط المعلمات وينشدن وراء سماح .. تسيل دموعهن على وجناتهن أنهارا... أخذت جدران المدرسة تهتز وتردد الغناء كما الأشجار والورود والزهور في ساحة المدرسة"

وبعد أن يغني محمد رمضان الاغا نشيد الحياة مع تلميذات مدرسة طارق بن زياد نستمتع معه ومع معلمات ومديرة المدرسة، إلى خطاب سماح:

* " واستمرت سماح في كلمتها ومديرة المدرسة والمعلمات مشدوهات مأخوذات بما يسمعن من عمق، في كلمة طفلة تقف على أعتاب زهرتها التاسعة، وكأنها ابنة العشرين أو يزيد"

ويتصاعد الكاتب في نصه رويدا رويدا إلى أن يبلغ الذروة في لحظة المأساة، عندما تسقط قذيفة إسرائيلية على تسع من الزهرات ومعلمتهن، كن يعددن العدة لحفل تكريم سماح لتفوقها في فن الخطابة.

* " ... ترتمي الزهور ومعلمتهن على الأرض ودمهن يفور من الأنف والفم وجروح تملأ أجساد النعناع.."

كان هاجس سماح، حتى وهي ممرجة في دمهها، أن تدخل الفرحة إلى قلب أمها المكلومة بفقد شقيقها:

* " وسماح تشطح بفكرها وفي ذهنها كيف يكون غدا أجمل أيامها وأيام أمها، تود أن تزرع الفرحة في قلب أمها بعد الحزن الذي أصابها في السنة الماضية وذلك بعد استشهاد أخيها أحمد" أطفال يحبون الحياة ولكن وحش الاحتلال يجثم فوق صدورهن يعرقلها، يعوقها، أو يخطفها، دونما تفريق بين أنثى وذكر أو بين كبير وصغير!

بكلمات بسيطة خالية من التكلف - كعادته دوما - يرسم لنا الأديب
الأستاذ محمد رمضان الاغا لوحة تعج بالحياة بواقعها الحلو و المر .

7

عطور الفجر

في أسلوب مبتكر، سينتهجه الكاتب فيما بعد في سلسلة قصصية أطلق
عليها الأستاذ الأديب والناقد، زكي العيلة: سباعيات محمد رمضان.
يستنطق الكاتب الفراشات والأطيّار والأزاهير والرياحين والعطور،
وأشجار الزيتون وسنابل القمح، التي تعترف له جميعا أنها من عبق
الشهداء الأطفال ، وبرمزية غير معقدة يستشفها القارئ بسهولة،
وبعبارات هي أقرب إلى الشعر تهز عواطف القارئ وتستدر دموعه.
وهكذا استطاع محمد رمضان أن يخلد صغار الشهداء ... كمحمد الدرة
وإيمان الهمص وغيرهما كثير .

ولم يفت الكاتب أن يغمز من خمول بني يعرب فيقول على لسان عبير:
* " قالت السماء: لست أنا من يطير إنما تحملني أرواح الشهداء في
فلسطين والعراق والأفغان "

ويختتم الكاتب قصته بنص شاعري رائع حين يقول على لسان عبير
أيضا:

* " تساقطت الحروف من السماء كاللئى المطر ملأت الكون من عبيرها
الفواح عطرا "

* " جمعت عبير آلافا منها في حجرها المنسوج من عروق الندى
زرعتها وقريناتها على شاطئ الشهادة الممتد على طول المدى ..

* " نبتت الحروف على الأرض وزينتها على شكل لوحة مكتوب
عليها بالأقمار "الشهيد حبيب الله"
" ذهبت عبير إلى حضن أمها
- أريد أن أموت شهيدة يا أماه "

وأختتم بتعليق رائع كتبته القاصة ميسون أبو بكر -أديبة و شاعرة
فلسطينية- حول (عطور الفجر) قالت فيه:
"الأطفال كالرياحين تنبت على أرض الوطن تنمو من مائه أو تسقي
الأرض من دمائهم الطاهرة حين يغتصب طفولتهم المحتل، دماؤهم
الغالية تسقي الشجر، ويحمل عقبها البحر، ونسائهما تغلل السماء في
عليائها !

فيصبح الوطن يحمل ملامح أولئك الشهداء هم ماتوا ليحيا الوطن. لا أقدر
أن أقف عند جملة أو جملتين مما كتبت لأقول لك سيدي كم هي مؤثرة،
فكل ما كتبت حساس رائع، كلماتك كالموسيقى كاللئى السماء، كدموع
البحر، كالندى دام قلبك طاهرا ونقيا ليسكب كل هذا الطهر في أنية
قلوبنا! "

وصفوة القول:

تتمحور قصص محمد رمضان في خطين رئيسيين:
أولهما: التعبير عن معاناة شعب يعيش تحت أشرس أنواع الاحتلال.
ثانيهما: تمجيد الشهداء وخاصة منهم الأطفال وإحياء ذكراهم.

أما اللغة: فتمتاز بشاعريتها وببساطتها وخلوها من التعقيد مع ترميز شفاف يظهر على الأخص في سباعياته.

وعلى العموم نحن أمام أديب مبدع يمتاز بغزارة إنتاجه، أستحق بجدارة، أن يعتلي عرشاً من نور.

*نزار بهاء الدين الزين

سوري مغترب-عضو اتحاد كتاب الانترنت العرب

عضو الجمعية الدولية للمترجمين واللغويين العرب

العصفورة

تلبدت السماء بالغيوم الكثيفة المتراكمة فوق بعضها البعض واكفهر وجهها الأزرق الجميل حتى غدا قاتما وخبأت الشمس وراءها فلم يعد لها من وجود في عيون "قراس" الذي يقف على أعتاب ربيعہ السابع...
سأل "قراس" أمه:

- أين ذهب الشمس يا أمي؟؟

- غطتها الغيوم

- لماذا؟؟

- لأن الدنيا ستمطر إن شاء الله.

تهلل وجه "قراس" فرحا، وتسمر على شباك غرفته الزجاجي وأخذ ينتظر هطول القطرات الأولى لمطر هذا العام، ها هو المطر ينهمر ويقفز "قراس" في غرفته مسرورا، ويصرخ مناديا إخوته ليشاهدوا الأمطار تعزف أنشودة السماء "قراس" يحب المطر والماء المنساب على زجاج شباك غرفته يحاول إمساك قطرات الماء أو ملامستها بيديه من وراء الزجاج لكنه لا يحوز منها شيئا. يرى عصفورا صغيرا يقف على الشباك يحاول أن يداري نفسه من غزير المطر المتساقط وهو يغني أنشودة

الخير وفرح الأرض... ريشه الجميل مبلل بالماء يضم العصفور عنقه
إلى صدره كأنما يحن إلى صدر حنون... يفتح عينيه نصف فتحة يراقب
رذاذ الماء المتناثر حوله... ينتفض العصفور الصغير فتتطاير دُرر الماء
عن ريشه الحريري لتهبط إلى الأرض مع حبات المطر فتزيدها جمالا
إلى جمالها كأن العصفور ينتظر أن تنتهي السماء من مطرها لينهل
فرصة الهرب إلى حضن أمه الدافئ... يصرخ "فراس":

- سأفتح له الشباك يا أمي

- لماذا يا بني؟

- لأقيه الماء، ثم أطلقه إذا ما توقف المطر

- دعه يا بني، سيطير إلى بيته بعد قليل

- وهل له بيت يا أماه؟

- نعم يا ولدي، فكل العصافير لها أعشاش كما كل الناس، فهل هناك

أناسٌ يا ولدي ليس لهم بيوت؟

- نعم يا أماه

- من يا ولدي؟

- الذين هدم "اليهود" بيوتهم!!!!

لا تخرجيني

عاد من مدرسته يحمل ابتساماته الجميلة على شفثيه ووجنتيه الحمر اوين اللتين صبغتهما الشمس بدفئها فغدا وجهه كتفاحة رائعة. قال لأمه وهي تسكب أنهارا من جنان حنانها وقبلاها على وجهه الصبيح:

إذا جئت غدا إلى المدرسة يا أمي وسألت المعلمة سؤالا لم يُجب عليه أحدٌ غيري، وصرخت المعلمة بأعلى صوتها قائلة: صفقوا له، فأرجوك لا تضحكي

- لماذا يا حبيبي؟

- حتى لا تخرجيني أمام أصحابي!!!

العبدة السوداء

ركل الجسر بقدميه وسار نحو القدس يحمل وصية أمه بقلبه المكسوم
وعلى صفحات روحها كتب قصيدة الحب للوطن الرائع، يحمل في قلبه
هوية من كل ذرات الرمل ونسمات الهواء وهو يستنشق عبير الزيتون
المنساب في طواحين الندى القادمة من كل مكان ترسم علامات النصر
بزيت الزيتون وحببات اللوز والتين فيرفعها صلاح الدين على مآذن
القدس ولا يلوي إلا على صخرة قالت له أمه إنها قد وقف يوماً عليها
سيد الخلائق عارجاً نحو السماء السابعة وأعلى ...

أمسك حجرتين، لثم الأول بشفتيه فذاب من الوجد شوقاً وهو يتهدج
ويتهدج أسماء أطفال شيدوا بدمائهم قصورا من نور تعلقو في سماء
الوطن الجريح فما نام له قلب ولا أغمض له جفن إلا على هدير دبابات
تظن الصخر طحنا، وذاك الطفل ما عاد يجد الطحين في بيته المهذوم
فوق رأس أمه وأبيه فمكث أياما يخرج بقاياهم والمجرم يتسلى على مشهد
طفل فوق مسرح الواقع المقيت ولا معين إلا نسائم عطر تتسلل من بين
الركام فترشده إلى الجنة التي يرقد فيها والداه معا والثاني حفر له أخودا
بقلبه فذاب فيه كما قطعة سكر

وبديمقراطية شهد لها الكون اختارت العصافير صلاحا، فقام القاتل
وأمسك عنق العصفور الجريح، نظر العصفور إلى السماء بدأ يقرأ ألحان
الحنان التي كان جده يوما يناغي بها الصخرة وهي تبكي لتصعد إلى
السماء مع دعاء جدته التي جاوزت بحر الحياة بمائة عام ولا يزال لديها
مزيد...

صلاح: عد لأمك ومعك مفتاح المدينة وأعطها إياه ليشهد الكون أن امرأة
معها المفتاح بوقت عز فيه الرجال فهربوا في دهاليز العبداء السوداء تأمر
وتتهى فلك الله يا أم صلاح!!!

لماذا يا أمي

دلف ورأسه مبلل بالندى الصباحي الذي يزين الشوارع هو في الفصل الثاني وروحه معلقة في الفصل الأخير في هذا الكون...
أخرج دفاتره وأقلامه وألوانه وأخذ يرسم العلم والأقصى وشجرة الزيتون:

غداً سأقطف ثمار الزيتون مع جدي ...

سأرافقه نحو المعصرة وأحمل خبزا وجينا.

يرسم الرغيف والطابون والماعز ...

يحلم كما كل أطفال الكون...

دق باب الفصل تلميذ في مثل سنه أو أكبر قليلا ... أرسلت له معلمته ليجيب سؤالاً عجز عنه طلاب الفصل الثالث. أجاب عنه بجدارة ورسم على السبورة نعش شهيد و بندقيّة.

صرخت معلمته بأعلى صوتها: صفقوا له.

صفقوا ولكن بصوت ضعيف خفيض لا يكاد يبين ..

صرخت مرة أخرى: أعلى... أحمى... أقوى

صفقوا كأعلى ما يكون التصفيق حتى ضح الصف كله.

قال لأمه:

- ضحكت يا أمي وأدرت وجهي في اتجاه آخر حتى لا يراني التلاميذ ضاحكا...

لماذا يا أمي لا أحب أن يروني ضاحكا!؟

- أتدريين لماذا؟

- لماذا يا قلبي؟

- أذكر عشرين شهيدا من مدرستي سقطوا فيها.

المعلمة السوداء

أعلنت دائرة التفتيش في بيت "الحاكم بأمره" أن المعلمة السوداء سوف تصل إلى (القرية) الفلانية لإجراء تفتيش شامل على "المخاتير" فيها والتأكد من أنهم يقصون أظفارهم دوريا ويحملون مناديل ورقية وقماشية لمسح "أنوفهم" و"شفاههم".

واستعد المخاتير والوجهاء أيما استعداد وقاموا بكنس "الشوارع" و"الشوارب" ورفع "الأعلام" و"الأزلام" حتى غدا المكان كأنه ليس "هو" ووطن أهله أنهم "مواقعوه" من الألم الراسي فوق الجباه والجبال ...

اصطفوا جميعا على صعيد واحد ووضعوا مناديلهم القماشية والورقية بأيديهم كما تلاميذ مدرسة صغيرة في طرف بعيد من أطراف "قريتنا" التي كانت يوما ملتقى العزة والكرامة...

وصلت "المعلمة السوداء" وببيديها أشياء لم نميزها لا أدري أجهل بنا أم لغشاوة على أبصارنا من وهج النار أم ضعف أبصارنا والأفئدة.

وصفعت الأول خمساوي

والثاني ركلكته بقدمها

والثالث بصقت في وجهه

والرايح جلدته بكرياج في يدها
والخامس فقأت عينه
والسادس وسمته على الخرطوم
والسابع قطعت أذنا له
والثامن كسرت يده اليسرى
والتاسع قطعت قدما له
والعاشر بقرت بطنه

و

و

و

الثاني والعشرون

وجدته قد قلع أسنانه وقطع أصابع يديه وقدميه ووضعها جميعا في
"حاوية" سوداء ضخمة، فنظرت إليه وقالت:

- شاطر يا ولدي أنت من تستحق كرسيها وصحيفة فضائية و"شعبا"
وعلم..

الفارس ووشوشات القمر

(1)

بينما كانت الورود تتفتح في عتمة الضمير العربي المستتر، والذي لا محل له بعد من الإعراب وبرغم محاولات يائسة من سيبويه طوال قرون عديدة من الحزن والألم، قال الفارس لعمر: دلني على الطريق!!.

(2)

أعطاه عمر وردتين، الأولى ذابت في دمه وفتح الثانية فوجد بها كتباً خمسة حروفها مليئة بدمنا العربي المتناثر في كل مكان من المعمورة التي بدت في أرضنا مهجورة.

(3)

ضم الفارس الوردة الثانية إلى صدره فأحس بها ثقيلة فقرأ مكتوباً على صفحة الورد البنفسجية: "إننا عرضنا الأمانة على السموات والأرض" فدمعت عيناه وفاضتا حتى غدا وجهه الباسم أكثر نوراً!!! وبدت وجوه

أخرى كثيرة قاتمة السواد، قال للوردة: من هؤلاء؟ قالت: "إن الله لا يصلح عمل المفسدين".

(4)

نظر الفارس إلى المرأة فرأى ما لم يكن يراه من قبل: رأى مكتوبا أمام ناظره على صفحة قمر جميل ناصع البياض - لم ير أنصع منه - يأتي نحوه من قلب المرأة الشامخة كطود عظيم أمامه "ومن يؤت الحكمة فقد أوتي خيرا كثيرا".

(5)

أمسك القمر بيديه، ضمه إلى صدره، وشوشه القمر وقال "أنا لك ولكن بحقي" وما حقاك يا نور القلب قال القمر مبتسما " أن تحب القدس أبدا!!!!" أقسم الفارس وكيف لا وأنا أحبها قال القمر: هل بذلت من أجلها وردة ذابت منذ قليل في دمك؟؟؟؟.

(6)

حمل الفارس القمر بين أنامله وسار في طريق طويل تحفه أشجار وورود وأشواك، لهث، وكادت تنقطع أنفاسه، تذكر الوردة الذائبة في دمه!!.

(7)

أخرج الوردة واشتم طيبها وفتح عينيه ونظر حوله فوجد نفسه يصلي في
القدس ويده كتاب من نور وطيب وريحان نادته أمه قم يا ولدي هذا بلال
يؤذن للفجر حمل القدس في قلبه ووردتين وسار نحو الله.

اللهم أنصرنا على الحمير

مدينتنا الجميلة: مواكب الفجر فيها لا تتوقف عن الهتاف في وديان النور
والندى وكل الأرواح المكسوة بعبق الزهور تعانق ثلة من الأولين الذين
كتبوا بمداد الدم المقدس أجمل قصة لأجمل وطن وأجمل سماء.
لم يستيقظ هاني بعد من نومه لكنه يشعر بشيء كالحلم يساور اللب فيه،
ينظر حوله فتتراءى له أحلام وأرحام تصعد من الأرض نحو السماء
وأخرى تهبط من السماء نحو الأرض يوقدها النور الموقود من ريح
الطيب المقدس وكلها تسأل بحرارة الانتماء والالتصاق بكف الثرى
ونقول:

من يوقد الشموع في ساحات الوهج المتقدمة نحو العاصمة؟؟؟
رفع هاني سبابته نحو القمر ونادي:

كيف هذا النور المتألق في ذرات قلوب العاشقين الثرى ثم يقولون إن
بالأرض من يفسدون!!!!

تتكالب عليه كائنات من كل حدب وصوب وبمقامع من حديد تعقل اللحم
وتكبل يديه وتقدمه لمحكمة الأحلام، وقضاة السلطان يحكمون بإعدام
الحلم والحالم في سكون من الكائنات التي تتنفس زورا بخبز السلطان
صرخ اللحم والأغلال مغروسة في يديه:
اللهم انصرنا على اليهود والحمير!!!!

حَضَنُ الوَسَادَةِ

فغرت المدينة فاها الواقع في الركن الغربي منها، تعودت أن تبلع بين أحشائها كل يوم شيخاً أو شيخين أو شاباً قضى في حادث سير مروع على الطريق السريع الوحيد الذي يربط رثتي المدينة، وتمضي المدينة بقية وقتها وهي تمسك مسبحة المائة حبة وتجوب الشوارع جيئةً وذهاباً يلعب الأطفال فيها طوال النهار وجزءاً من الليل حتى تنتاب أضلاعهم رهقاً...

يأوون متأخرين إلى أحضان وسائدهم مستغرقين في نوم كان عليهم ثقلاً ثقيلًا فلا يصحون إلا على أشعة الشمس تدك عيونهم الوردية بقنابل من ضوء عنيف... يقفزون نحو شنط المدارس ويرتدون ملابسهم الرثة أو الجديدة وتينك الأحذية البالية... يتجهون نحو قاعات الدرس مسرعين وما زال بعيونهم وأفئدتهم بقايا نعاس تراوح المكان وتراوغ الأبصار. يقرأ المدرس "إنا أنزلناه في ليلة القدر" ويردد الصبية خلفه بكل ما أوتوا من صوت "إنا أنزلناه في" ويفيض دمهم ولحمهم قطعاً فوق الأرض وعلى مقاعد الدرس... ويبتلع صوت القنابل بقية آيات ليلة القدر... وتصد أعمدة من نور نحو السماء...

وتتأهب المدينة لتحضن كوكبة جديدة من الزهور في ركنها الغربي وتتطاير في أعالي السماء حبات المسبحة من نوى الزيتون المقدس لترتوي بدم الورد وينمو الزيتون نوراً نحو العرش في حواصل طير خضر.

مومسات

حط بعيونه الزرقاء وشعره الأشقر من عنق حضارة عوراء بين بقايا
أشلاء من قومه فوق الأرض يمشون وفي البحر يبحرون وفي السماء
يطيرون، نظر في روحه الخاوية فملأها إيماناً بخالق الأرض والبحر
والسما،

جاوبته سورة الروم وسورة الإسراء، فتهلل ضاحكا رافعا صوته نحو
السماء: أشهد أن الله ربي وسيدي محمداً نبيي، أحب الله والناس والكون
وما تخلف، لم تشفع له العيون الزرقاء أن يحملوه مقيدا مكبلا بسلاسل
من حقد قاتل، يحط به قائلوه في "جوانتنامو" ولا يرحمون، يرفع يديه
نحو الله ويصرخ!!

تسمعه آلهة حضارتهم فتضحك وتسكر حتى النخاع جذلانة يقولون:
قد يكون اشتاق للهو معهنّ ..

أمطروه بمومسات من معاقل الحضارة، فهممّ بهنّ وهممن به،
"يوسف أعرض عن هذا"...

نهمة القمر

سأل الموج القمر في منتصف شهر هجري:

- هل حقيقة أنك تهدد البحر بمد وجزر
- يا إلهي ومن قال لك ذلك؟؟؟
- العلم الحديث
- آلهة العصر إذن!!!

دعني أسألك سؤالاً قال القمر للموج:

- ومن يهدد الإنسان بالأعاصير؟
- البحر وربما الريح، والعلم الحديث يقول إنه الاحتباس الحراري
الناشئ عن التلوث!!
- نظر الموج في وجه القمر وقال:
- لكنك جميل رائع الجمال فكيف يتهمونك؟؟
- وهل أجمل من زرقة عينيك يا هذا الموج!!!
- هل تعرف شاطئ غزة أيها الرائع؟
- نعم سيدي.
- من هنالك زرع الموج دماء أطفال في روعة الزهر!!!!

لا سيدتي كلهم شرفاء

قالت قطرة المطر مبتسمة لأختها وهما تهبطان مسرعين من السماء:

- أين المستقر؟

- قبر طفلة استشهدت في غزة لأستمتع بمسك روحها الذي يملأ الأرض
عبيراً.

- ومن قتلها؟؟

- صهيوني حاقد.

قالت القطرة الأخرى:

- وأنت سيدتي إلى أين تتجهين؟؟

أجابت والدموع بعينيها:

- نحو قبر شهيد بأكناف بيت المقدس "وضعوا" له السم في الطعام في
شهر رمضان الكريم.

- يا إلهي ومن وضع السم له؟

- لم تظهر نتائج التحقيق بعد؟

- هل شكلوا له لجنة دولية؟

- لا.

- هل يرتابون بأحد من القتلة؟؟

- لا سيدتي كلهم شرفاء !!!!

نفق العرائس

خطبها أحمد منذ سنوات خمس، وما زال يرسم صورتها كل يوم في قلبه
آلاف المرات... ينتظر أن يفتح "المعبر" وتسمح دولة "صهيون" لخطيبته
"رانية" بعبور قنطرة الحياة ...

انتظر عاما بعد عام وسكاكين العدا تسلخ جلده ألف مرة كل يوم.
يذهب نحو "السلك" يصرخ ولا أحد يسمع... يشتري شريحة "جوال"
مصرية" ويهاثفها مئة مرة في اليوم والليل

يسرع عند المغيب نحو النوم ليحلم
يحلم بها وتحلم به لكن لا حول لهما ولا قوة في اللقاء
يقطف بعضا من أوراق النعناع والريحان ويطيرها نحو حدود مصر
يمسك البلبل ورقة نعناع بمنقاره ويطير بها فوق الحدود
يحط البلبل على حبل غسيل في وسط بيتها "رانية"

يغرد فتصحو "رانية" وتستمع لأغنيته
تمسك ورقة النعناع وتصنع بها شايا وتقطر بالزعر
يهاثفها "أحمد" النفق جاهز... تحمل كأس الشاي المنع ببيدها
تسرع نحو النفق... بلا حفل ولا وداع

هي الآن في أرض الرباط
البلابل في غزة هاشم تطلق زغاريد العرس
تجمع درراً من لآلئ الندى
وتقدمها "قطة" على رأس "رانية"

الرياح عارية

زعمت الريح أنها سوف تصعد نحو الشمس لتطفئها
ضحكت الشمس وقالت: عجبي
غضبت الريح فهاجت وماجت وصعدت وهبطت وثارَت ومارت
ضحكت الشمسُ وقالت: وهل يعلو فوق العينِ الحاجبُ
فتحت الريحُ عينيها ونظرت نحو الشمس
حدقت الشمسُ في عينِ الريح
أصابَ الريحَ في العينين عمى
قال القمر: سمعا وطاعة يا أمي

دموع قلم

أمسكت عائشة القلم لتكتب رسالة لأبيها الفابع خلف القضبان، سألت
دموعها فوق القلم جداول، سارت الدموع بطيئة كما سني السجن،
وصلت دموعها إلى رأس القلم فعانقت دموعه، اختلطت الدموع بالدموع،
نظرت عائشة إلى الدمع والدمع يلتقيان على الورق في وجد وشوق،
قالت: لماذا يبكي القلم؟؟

قال: حزنا على أبي

كتبت:

أبي أكتب إليك بدموعي والقلم

ما زلت أذكرك يا أبي تحملني وردة منفتحة

يوم غادرتنا مكبلا بالقيود وعمري لم يتجاوز الشهرين

أبكي ولا أدري لم؟

أذكرك وأنت تطبع على وجنتي أجمل القبلات كما القمر يعانق الشجر

تسرقها- القبلة- من الأوغاد والقيد في معصميك وأبكي

أذكرك وأنت تشم أنفاسي تخرج من نار صدري المتوهج

أذكرك ودموعك تتساقط على وجهي بردا وسلاما

أذكرك وأنت ترفع يديك المكبلتين وتقول لي بشموخك الأبدى:

إلى اللقاء...

سأعود يا عائشة غدا سأعود

أبي

لقد بلغت اليوم من عمري العاشرة... كم بقي لك يا أبي من السنين حتى
تخرج وتعانقني مرة أخرى مئة سنة، مئتان خمسمائة... يا إلهي
حكموك ألف سنة إلا ثلاثين عاما... من يحتمل سوى جبالك الرواسي هذا

الظلم

أبي..

ولا يزال عبق العرق المتناثر من جبينك يملأ المكان وفراشي ووسادتي
الصغيرة... كل هداياك ما زالت بين يدي..
ألثمها بشفتي... أضمها إلى صدري الملتهب
أحضنها، أدوب فيها، تصهرني، أصهرها

أبي

لقد دخلت المدرسة وتعلمت الكتابة والقراءة... وتعلمت حب الأوصى
والقدس وفلسطين، وتعلمت حبك وحب أمي وحب الأرض وحب
المقاتل..

أبي

أنا هنا في انتظارك

وإن لم تأت فسوف آتيك زحفا

وإن لم نلتق هنا

فلقاؤنا هناك في مقعد صدق عند مليك مقتدر.

العيون العسلية

رفعت صوتها نحو الشمس، نفضت روحا كانت تختبئ في جسدها الغض الطري، صرخت في الشمس بأعلى ما تملك من مكبرات الصوت الساكنة في حنجرتها، استجابت لها كل الحناجر العيون والأذان وهتفت:

- كلنا فداؤك يا أقصى

برغم أن "أسماء" لم تزل في ربيعها الثامن إلا أن العيون أخذت تهتف وراءها دموعا ساخنة، الأرواح تصلي في الملكوت الأعلى، ما هذه الآلاف المؤلفة التي تحمل أرواحها وتقذف بها إلى السماء تعلن شوقها إلى الجنان:

يا إلهي من هؤلاء الفتيات اللينات الجميلات الرائعات ذوات العيون المتوقدة تعاند الشمس في عز ظهيرتها ولهيبها واحتراقها ونيرانها القاذفة، كيف تستحمل هذه العيون العسلية والبنية والزرقاء والخضراء أن تصمد ساعات في حر الدم العربي المسفوك، والأمة لم تزل في سباتها لا تحرك ساكنا أو تغير واقعا، وجيوش هامة خامدة تحمي كراسي من ورق مهترئ يتنازعون عليها ويقبلون بكل أنواع المذلة للحفاظ عليها،

يا إلهي، تهتف الشمس معهم، تستجيب لهم، تصعد "أسماء" نحو الشمس على جناحيها الطويلين يمتدان ضفيرتين ترفرفان بين الغيوم، تتجاوز غيمات قليلات كن يحجب الشمس عن آلاف العيون الرائعة التي لم تتجاوز الثامنة من عمرها، وهي تسكب دموعا ورحيقا، تجمعها الفراشات

الطائرة في السماء، تعود به وتسقي أرواح الشهداء الذين قضوا في
رحاب الأقصى وما حوله،

عادت أسماء في يدها الآلاف من حبات زيتون الشمس، والزيتونات ترتل
سورة الإسراء، نظرت كل العيون إلى جيش الزيتون القادم من قلب
الشمس، اصطفت الزهرات والفراشات اليانعات صفا طويلا كالبنيان
المرصوص، حطت أسماء على الأرض الطيبة، أعطت الفراشات
والغزالات والزهرات حبات من زيتون، أضاعت حبات الزيتون
المباركات لهن الطريق نحو مسجدهن الأقصى:

قالت أسماء: أين الأسلحة التي بال عليها الصدا؟؟؟

أشياء عروسين

في بيوت تطايرت أشلاؤها وذنباها الوحيد أنها تقاتل وتعشق الحرية
وتحب الهواء وتغني وتتشد أسماء الشهداء
كل صبح وكل مساء، وتنتظر الفجر القادم، والأرانب البرية والعصافير
والفراشات تسكن جنبا إلى جنب مع الورود والزهور.
ولم يكن أحد يعلم أن الموت كان يسكن هناك عند جنازير الدبابة الكريهة
التي تمد خرطومها البشع كل حين وفي كل اتجاه، وبقلبها الخبيث تتقدم
صناعة الموت والهدم والقهر، وسلوى البريئة تحفظ دروس الغد، وتسبح
بعيدا وتبكي إذا ما نفث الخرطوم البشع حقه وناره وحديده المصهور
والصاهر:

- يا إلهي من يحتمل هذه النار، تتذكر زميلتها ابتسام وكيف أضحي
رأسها أثرا بعد عين، وقد جمعوا بقاياها على مدى أسبوعين كاملين،
ودفؤوا جسدها الغض عشر مرات، احتضنت قطع الحلوى الصغيرة
وبيضة مسلوقة، أعطتها إياها جدتها لأنها كي تأخذها معها إلى المدرسة
في الصباح وتطعم صديقاتها، وتفطر على البيضة المسلوقة وقد رشتها
بالزعر الشهي:

- سأطعم صديقاتي من الحلوى وأقسم البيضة عليهن جميعا، أشتهي هذه
البيضة وزعرها وزيت الزيتون، متى يأتي الصباح، لأكلها وأفرح بها
وتفرح زميلاتي، سوف أكلها في الطريق إلى المدرسة، لا... سوف
نأكلها في المدرسة وسوف أعطي معلمتي منها، فهي تحبني وأنا أحبها،

وضعت ابتسام الحلوى والبيضة بجانب الوسادة، نظرت إليها، شممت رائحتها، اشتهتها، احتضنتها، غفت الفراشة الصغيرة، سبحت مع الملائكة في طهر وبراءة، حملتها الفراشة على جناحيها نحو القمر، نظرت من هناك، رأت الأرض صغيرة وجميلة ورائعة.
قالت للملائكة: دعوني أنظر إلى بيتي في مخيم رفح.
نظرت، رأت الخرطوم البشع يصب ناره على بيتها الصغير.

صرخت بأعلى صوتها، لا لا ... لا تحرقوه هنا تسكن أمي وأبي وإخوتي وأخواتي، هنا قطع الحلوى والبيضة المسلوقة، أريد أن أطعم معلمتي وصديقتي، لا لا...

فاطمة

استيقظت من نومها وأشعة الشمس المتسللة من شقوق النافذة تتخلل
خصلات شعرها المسترسلة على الجبين والخددين، وتداعب عينيها
الخضراوين بنوع من المزاح الثقيل الذي لا تحبه.

أدارت وجهها ذات الشمال، سحبت الغطاء لتواري عينيها قليلا، لعلها
تتال قسما آخر يسيرا من النوم الذي تشتاق إليه، فعيناها لم يغمض لهما
جفن منذ أيام مضت، ولا تزال صورة أخيها الذي قضى نحبه شهيدا لا
تفارقها عقلا وروحا، يقظة ومناما، وجهه المشع نورا، عيناها تتجهان إلى
السماء، ابتسامته التي تأخذ الألباب، وجنتاه الورديتان تزينهما حمرة دمه
الذي لم يجف وقد مضى على استشهاده يوم كامل، جسده النحيل الذي لم
يزل يحتفظ بحرارته كما هي، رائحة المسك التي تفوح من جروحه
العديدة في الصدر والكتف الأيمن وقدمه اليسرى، جبينه الذي لا تزال
درر من العرق تزينه وكأنه الياقوت، الآلاف من الأهل والأقارب
والأبعد والجيران الذين جاؤوا من أماكن عديدة بعيدة وقريبة ليودعوا
هذا الجبل الأشم الذي دوَّخ العدا وأذاقهم الويلات كأسا تلو كأس وبلا
هوادة.

تنصت برביعها العاشر إلى القصص والحكايا التي يذكرها المودعون
والمقبلون للوردة المسجاة في ساحة الدار، يختلسون بعضا من دمه الفواح
والمناسب من جسده كي يحتفظوا بها أبدا ما داموا على قيد الحياة

وليتبركوا منها.

- يا إلهي ما الذي يجري هنا، من هؤلاء؟؟ ولماذا جاؤوا؟؟ أكل هؤلاء يعرفون بلال؟؟ أكل هؤلاء جاؤوا يقدمون له آيات الاحترام والتقدير والتبجيل؟؟ ليتك يا بلال تكون حيا لترى هذه الأمواج الهادرة من البشر وهم يتنافسون من يقبلك؟؟ ومن يحمل جسدك لحظات؟؟ وتهتف حناجرهم باسمك؟؟ ليت وليت وليت.

يوقظها من حلمها الوردى ضجيج دبابات الحاقدين، ترفع رأسها، تتجه نحو شباك غرفتها، ومن بين شقوقه ترى عشرات الجنود المدججين بالسلاح، ومكبرات الصوت تصرخ، أخرجوا سننسف البيت على ما فيه!!! تخرج إلى ساحة البيت، تجد أمها باكية وتقول: حسبي الله ونعم الوكيل ودموعها تجري على وجنتيها أنهارا.
تتوجه إليها، تحضنها، وتقول:

- لا تجزعي يا أماه!!! أليس هذا في سبيل الله والوطن؟
- نعم يا ابنتي - وتضمها إلى صدرها.
- هيا بنا نخرج يا أماه قبل أن يفعلها الأوغاد.
- تخرجان إلى الشارع، يحيط بهما الجنود من كل جانب.
- هل بقي أحد في البيت؟
- تجيب فاطمة:
- نعم، بقيت دفاتري وملابسي وعروستي الصغيرة.

يضغط الجندي على زر التفجير.. تصرخ فاطمة... تبصق في

وجهه ... يطلق النار عليها... تصافح روحها روح بلال... ويجري
دمهما في ساح الوطن
تلقى أمها بنفسها على الأرض إلى جوار وردتها المسجاة وتصرخ:
- والإسلاماه... واعرباه

أحبهم يا أمي

كلما جن المساء خلا خليل إلى نفسه في غرفته المسقوفة بصفيح لا يقيه
برد الشتاء ولا حر الصيف، وعلى ضوء شمعة صغيرة اعتاد أن يقلب
دفاتره، ويحل واجباته ويحضر دروس الغد، تفاجئه أمه أحيانا فتدخل
عليه صومعته الصغيرة التي لا يتجاوز بعدها أمتارا ثلاثة في مترين،
يتخذاها مأوى لهما في زمن عز فيه النصير، وما إن تدخل حتى يرتبك
خليل أحيانا ويحاول إخفاء بعض كتبه وأوراقه ودفاتره، يساور الأم
شك!!!!

- ماذا يا ترى تحتوي هذه الورقيات والدفاتر التي يحاول صاحب الأعوام
العشرة إخفاءها؟؟؟
تسأل الأم نفسها ولا مجيب... تتظاهر أنها لا ترى شيئا وتدخل عليه
ضاحكة باسمة:

- هل أعد حبيبي دروس الغد؟؟؟
- نعم يا أماه، وكل شيء جاهز، لماذا لم تحضري معك الخبز و
الزعر؟! كل يوم خبز و زعتر... خبز و زعتر..
تضحك وتطبع على وجنتيه الورديتين أجمل القبل، ولا تتسى أن تتوج
هذا كله بقبلة على الجبين، تذكر أباه الذي قضى شهيدا في مخيم رفح قبل
عام وهو يقاوم:

- لماذا تسيل دموعك يا أمي؟

- لأنني أحبك

- هل تذكرين أبي؟

تمسح الدموع وتقول:

- أين الدموع يا شقي

يرتقي على صدرها، ويرشف وجنتيها بلسانه وشفتيه، ويقول:

- هذا هو مذاق الدموع يا أمي، أنا رجل البيت، لا تحزني يا أماه، أبي

حي في جنان الله يرزق، أنا رجل، ألا تتقين في؟؟؟

تنام إلى جانبه، تحتضنه، وتقرأ بعضا من آيات القرآن، يقول لها:

- اقرئي يا أماه آيات الشهادة وسورة الإسراء

يغفوان قليلا، يأتي الشهيد إليهما، يمسح على رأسيهما ويغادر، يصرخ

خليل:

- أبي، لا تذهب، أريدك يا أبي أن تبقى عندنا

تنتبه الأم وتقول:

- وهل رأيت أباك أيضا يا حبيبي!!!

ويلتصق خليل بحضن أمه باكيا، وتسيل دموعه على خديه، وتتسرب إلى

شفتيه، ينظر إلى أمه ويقول:

- إن مذاقها كمذاق دموعك قبل قليل، كيف تقولين لي إنها ليست

دموعا!!!

يغمض خليل عينيه ويحاول النوم، وتستمر الأم في قراءة ما حفظت من

آيات كريمات، حتى نام الفتى الرشيق الجميل بين يديها وفي حضنها،

تملمت قليلا، وتناولت حقيبة المدرسة، فتحتها، تناولت دفاتره واحدا واحدا، انشرح صدرها لتفوقه، وتمتت بأدعية كثيرة، فتحت الدفتر الأخير، وجدته مليئا بصور الشهداء، وقد كتب خليل تحت كل صورة عبارات محبة وعشق ... هنا فتح خليل عينيه وقال:

- أهذا ألبوم الشهداء يا أمي؟
- نعم يا ولدي
- متى أعددت هذا يا كبدي؟؟ ومن أين لك هذه الصور؟؟
- طوال العام يا أمي، وأشتري الصور من مصروفي اليومي!!
- ولماذا يا ولدي؟؟؟
- لأنني أحبهم يا أمي.

كيف أنال رضا أمي؟

بينما كان القمر يرسم صورة الشهداء الفواحة مسكا على صفحته الرقراقة. كان أخي محمد يرسم بدمه قبة الصخرة ومآذن القدس على حبات الثرى ويسقي الأوغاد نارا من سجل أوقدتها في قلبه دماء الرضيعة إيمان حجو وقذيفة دبابة تغوص في ظهرها الغض.

كانت أمي في هذا الوقت ترفع رأسها ويديها إلى السماء، يا رب انصر محمدا واجعله ينتقم لكل الدماء المهدورة التي لم تحس بها دبابات أكلها الصدا وأسلحة ماتت في أيدي حاملها من جيوش جرارة.

كنت دوما ألجأ إلى ربيع حضنها وأنام بين زهور أناملها، وهي - أمي - تمطرني بدعواتها والقبل، يا إلهي، ما أجمل الحزن الذي وسع الوطن كله، دفاي كثوب قطن، ناعم كحرير، حلو كالعسل، يا إلهي!!! من أين أتت أمي بكل هذا الجمال؟؟؟؟

عجبت لقلبها الكبير كالبحر والذي يكاد يسع الأرض بما حوت، وهي تودع بروعتها أخي الشهيد مطلقه زغاريد الفرح وأعراس الوطن ورشات من زهور الياسمين والرياحين، وما كنت يوما لأصدق أن الأم تودع ابنها بمثل ذلك لولا أن علمتني أمي درسا حيا.

بعد استشهاده بلحظات استحضرت في نفسي كيف سوف أوسي أمي وما هي الوسائل والطرائق التي سوف أسلكها معها في محاولتي لتخفيف هول المصاب بفقدانها -محمد- أحبنا نحن الأبناء الخمسة إليها.

دلقت إلى البيت وقلبي يدق وتكاد دموعي تتساقط على الوجنتين حزنا عليه لكني حبستها بصعوبة، توجهت إليها، وحولها عشرات من القريبات والجاراات يستمعن إليها وهي تحدثهن كيف جاءها محمد قبيل استشهاده يطلب رضاها ويودعها:

- ضمته إلى صدري، تذكرت يوم كان رضيعا وهو يغفو بين يدي، والله لقد كان بالأمس بين يدي غافيا على صدري أخف وأجمل منه يوم كان رضيعا، أحسست وأنا أقبله كأني أسبح في جنات عرضها السموات والأرض، لم أكن في هذه الدنيا، لقد كنت هناك، أطوف بين قصور الشهداء والرسل والأنبياء، وضع أحد الشهداء يده على رأسي وقال: أتعرفين لمن هذا القصر؟؟ قلت: لا، قال هو لمحمد سيسكنه في الغد، قلت وأنا أين قصري، قال ذاك وأمسكني من يدي وسار بي في روضات ليس كمثلها روضات، أدخلني قصرا من لؤلؤ وياقوت ومرجان يفوق قصر محمد آلاف المرات، وقال: هذا لك، وصحوت من إغفاءة داهمتني، ومحمد ما زال يقبل يدي ويلثم الخدين.

يا إلهي من هذه؟؟؟ أهى أمي التي كانت بالأمس تخاف علي من نسومات الريحان، لا شك أنني أنا الذي في حاجة إلى من يواسيني، استجمعت كل

قواي، دخلت الصالة، انحنيت عليها، قبلت يديها وخديها، نظرت إلي
رابطة الجأش راسخة العقل سديدة الفكر، بادلتني القبل، أجلسنتي إلي
جانبيها وهمست في أذني:

- كن رجلا مثل أخيك محمد

سالت دموعي على وجهي وهي التي طالما حبستها

- هل أنت راضية عني يا أمي كما رضيت عن محمد؟؟؟

اسمع يا ولدي لن أرضى عنك أبدا حتى تسلك درب أخيك.

الشهيد القادم

وصل خالد إلى مدرسته في اليوم الأول من السنة الدراسية، جلس في المقعد الثالث، وضع حقيبته البالية إلى جانبه، ينتظر أن يأتيه مربّي الفصل ككل عام يطلب منه رسوم المدرسة، وهو لا يعرف بعد، كيف أو من أين سيحصل عليها، لقد مضت على أبيه عدة أعوام وهو عاطل عن العمل، ينتظر بفارغ الصبر كوبونا من هنا أو هناك لا يسد من الرمق إلا القليل... يفكر بجد ويقول لنفسه:

- اترك المدرسة يا فتى واعمل في ورشة أو مطعم
- ومن سيهتم بأمك وأبيك وإخوتك الصغار غدا؟؟
- وهل تنتظر الحياة حتى يكبر أخوتك؟؟
- ربما تستشهد أيها الشقي مثل أصحابك الذين سبقوك؟؟
- وهل هذا الوجه وجه شهيد؟؟
- نعم إنه يبدو كذلك، لقد حدقت به كثيرا في المرأة!! إنه تماما يشبه وجه محمد الدرة!!!
- بل الشهداء يختارهم الله، كالأنبياء تماما
- ولماذا لا يختارك الله مثلهم؟
- أوه لا تحلم أكثر أيها العفريت الصغير دع الأمور.

وبينما هو كذلك، لفتت نظره الخرابيش الكثيرة التي تملأ المقعد، أخذ يديق في بعضها، علم فلسطين يزين المقعد ويرتفع شاهقاً في سماء القلب، قرأ "فلسطين وردة حمراء لا يرونها إلا دم الشهداء"، "فلسطين عريضة حرة"، "القدس لنا" وشعارات أخرى كثيرة يحفظها لكنه من كثرة الخرابيش لا يستطيع أن يقرأها وها هو يحاول فك ألغازها، برغم صغر سنه إلا أن شريطاً طويلاً مر في مخيلته فلسطين... القدس... الفالوجة... المقاومة... الشهداء... الدم... الجرح... المستشفى... المسجد... الصلاة على الشهداء... جنين... بيت حانون... رفح... المسجد الأقصى... كنيسة القيامة... القسام... الحسيني... أحمد ياسين... عبد العزيز الرنتيسي... يحيى عياش... صلاح شحادة... ثابت ثابت... جمال عبد الرازق، وهنا أخرج دفتره الجديد ليكتب اسمه عليه... أمسك دفتر الحساب وكتب .

هنا دخل المدرس الفصل، شرح درساً جديداً في الحساب "مقياس الرسم" وأخذ يعطي أمثلة متعددة، ورسخت في ذهن التلاميذ عبارة "المسافة على الأرض كذا والمسافة على الخريطة كذا" سرح خالد في ما يشرح الأستاذ... يا إلهي حتى هنا وفي درس الحساب الأرض والخريطة وطول سارية العلم وظل العلم وارتفاع شجرة الزيتون وشجرة اللوز ونابلس وجنين والخليل؟ ثم طلب المدرس من التلاميذ حل المسألة التالية: "أنت تسكن في رفح وتريد الصلاة في المسجد الأقصى، احسب المسافة الحقيقية بين رفح والقدس معتمداً على الخريطة المبينة في الشكل".

أنهى خالد حل المسألة الحسابية بسرعة خاطفة، توجه نحو المدرس للتصحيح، بدت على المدرس علامات الدهشة وهو يسير مع الحل خطوة خطوة، ولكنه يقرأ في نهاية الحل:

" المسافة بين رفح وبين القدس ألف حاجز وحاجز "

و"المسافة بيننا وبين القدس ألف ألف قسام "

و"هي حياة طويلة، إن لم نقض شهداء "

رفع المدرس عينيه، نظر للتلميذ وقال:

رائع، ما اسمك يا فتى؟؟

يتلعثم الفتى قبيل الإجابة، لا ينتظر المدرس الإجابة، يقلب الدفتر

المدرسي ويقرأ، لكن تزداد دهشته حينما يجد مكتوبا على طابع الغلاف:

اسم الطالب: الشهيد بإذن الله خالد محمد عبد الله

أسم المدرسة: شهداء مجزرة رفح

الصف: القسم (4) وإن شاء الله العام القادم "القسم 5"

المادة: حساب الشهداء

جوانتنامو

توضاً قبيلَ الصبحِ بقطرتينِ من الندى هبطتا مع رذاذ القمر
يصلني ركعتينِ ناظرا إلى بيتِ الله الذي يبعدُ عنه آلاف الأميال
ويدعو يا رب إلى متى؟؟؟؟
يقفُ على شباكِ غرفته المسقوفة بالنور
يركضُ في الهواءِ ويطيرُ وراءَ الطيورِ في السماء
يمسكُها بكلتا يديه، يحبها، يقبلها، يدللها، يدلغها
يطلقها مرةً أخرى في الكونِ ويقولُ لها:
أذهبي وأطعمي وأرضعي بنيك الصغار
يلهث، يجري، يستريح، يلتقط بعضاً من أنفاس متلاحقة كموج البحر
يصرخُ بأعلى صوته، تسمعُه كل الدنيا
تستيقظُ أمه على صراخه
ماذا جرى لك يا ولدي؟
لماذا لا يطلق "بوش" سراح أبي؟؟؟؟
كما أطلقتُ أنا سراح العصافير البريئة!!!!
عقلك أكبر من عقله بمه

خبئيني في صدرك

(1) وضوء الورد

توضأت الوردة بعبق الندى
ووقفت على شاطئ القمر ونادت:
أسرعي أيتها الريح واحمليني على كفيك
نحو الدم القاني
في أرض يحملها الأطفالُ
على الرموش ولا يتعبون
في العيون ويضحكون...
في القلوب ويبيكون...
كي أستريح هناك ...
وأتطهر بدمهم المتسامي مع نسيمات البحر
ورودا وياسمين...

(2) درر

هنا أيتها الريح الحبيبة
حطّي الرحال
نظرتُ الريح إلى وجه الندى
والدموعُ تتساقط درراً على الوجنتين
ونحيبٌ كالغناء يملأ الكون الرحيب!!

قالت:

لِمَ الدموع وَلِمَ النحيب يا أمّاه؟؟؟

(3) جواز جدتي

الكون كله

ببراءة يجيب:

دموع الفرح والطهر أيتها الحبيبة

ونحيب ألحان في مدينتي

تلك التي علّمتنيها جدتي في الصغر

من هنا سأستخرج

جواز المرور

جواز السفر

(4) بذرة الشهيد

سألت الريح نسّامات الفجر

إلى أين تتجهين

قالت:

إلى هناك حيث ترقد بذرة الشهيد تحتسي كأساً من شهد الأرض

(5) لم يولد بعد

رفع العصفور عينيه إلى السماء

رأى كأساً بيضاء على شاطئ الغيم

مد يده، حاول أن يمسكها

قالت:

لست لك،

أنا في انتظار طفل شهيد ما ولد بعد

(6) سلة البوص

قالت له أمه:

أذهب يا ولدي إلى بيارتنا واقطف سلة من برتقالات جميلة

قال:

أنا ذاهب لأملأ سلة البوص من عطر الشهداء

(7) خبئني في صدرك

على طرف المخيم تسكن عصفورتان

الأولى طردت...

عشها في الدور العاشر من شجرة الجميز

الثانية قالت لجارتها الشنارة:

خبئي بيضي في صدرك حتى أعود

وترقبان كل صباح أخبار فضائيات العرب

والشنارة تتاديهما من وراء الجدار

أنا هنا برغم الحصار

والبيض في صدري ما غفا يا حمام

حورية

(1) سلام السماء

نزلت بلورة المطر الطاهرة المطهرة
تزينها براءة الوليد الرضيع و أمه الثائرة
تتبختر على سلام السماء الزرقاء تارة
وعلى البيضاء التارة الآخرة
المؤدية إلى كوكب الأفيق و النجمة القاهرة
تحمل بلورة الماء في يدها الجميلة باقة ورد ملائكية يحار الجنان في
ألوانها القازحة
تسللت البلورة وهي ترقص بخفة ورشاقة إلى كل مسامات الأرض
وغسلتها من أدرانها فغدت الأرض كأنها سُفُفٌ مكنونةٌ من فضة ماطرة
أنبتت الأرض وردة جورية بألوان نعرفها وأخرى لا نعرفها
لها عبق الجنان الفواح يخلب الأفتدة التي بدمها للأرض ناطرة
تجمّع حول الوردة الجورية آلاف العاشقين
في الأرض التي بارك الله فيها للعالمين
قرؤوا بدموع الحب اسمها
فراى بعضهم الحاء في رسمها غير منقوطة
ورأها البعض الآخر من أسفلها منقوطة

فاحترار القوم:

"أحورية" أم "جورية"؟؟؟

(2) المهدي

من بين أنقاض البيوت المهدومة

والدماء المهدورة

والأنفاس المقهورة

نما "صلاح" طفلاً رضيعاً

يمسك بيده يد الأرض الناصعة

يمتص الرحيق من ثديها البارز قبة للأقصى الحزين

يحار الجميع في أمره!!!

"كيف تكلمون من كان في المهدي صديداً؟؟؟؟"

(3) مأمور

مشى الرضيع في طريق النور

يحمل الأرض وفي فيه ثدي من غيم جميل

مشى القوم على خطاه

قالوا جميعاً:

"أتركوه فهو مأمور"

(4) عاشقة

وصل الرضيع إلى الوردة الباسقة

في كنف الأرض طفلة عاشقة
قبَّها على الوجنتين والراحتين والجبين
رفع الثدي من فمه
وضعه في فمها
ابتسمت، رضعت، أخذتها سنةً من النوم
وقف العاشقون جميعا وفي دهشة ينظرون
و"صلاح" يحنو على الوردة
كأم تضم وليدها الأوحد إلى صدرها المكوم

(5) الذباب

بضع ذبابات تحاول أن تحط على صدرها
"صلاح" يطرد الذبابات بيديه الطريتين كحريير به تغفو فراشات الوطن
تحوم الذبابات في الوادي المقدس سادرة تائهة
يلاحقها العاشقون الثائرون فلا يتركوا منها على الأرض باقية

(6) ابتسامة

يرجع العاشقون
سيوفهم بمتشقون
والستارة بعد ما انزاحت
"صلاح" يحنو والوردة تنمو
يسألها العاشقون:
أحورية أنت أم جورية؟؟؟؟؟

"صلاح" بيتسم
لكنه بعد لم يضحك!!!

(7) الركام

ذبابات يعدن حول الثرى
تتفتش الوردة من صدرها رحيقا أسودا
يصيد العاشقون بقايا العدا
تتساقط الذبابات ركاما هامدا

خذوني معها

عائشة ككل أطفال الدنيا وورودها التي خلقها الله، تتوجه في الصباح ومع إطلالة الندى وشقشقة العصافير إلى مدرستها، تحمل شنطتها وأحلامها وآمالها ونصف رغيف من الخبز ، لها الحق في الحياة مثل كل شيء خلقه الله فأحسن صورته.

تصل الزهرة إلى باب مدرستها غربي مدينة خانينوس

تضع يدها الطرية الندية في شنطتها

تتناول نصف الرغيف لتأكله

ترفع يدها إلى فمها

يطير الثلث الأعلى من دماغها بقذيفة دبابة تقف على بعد مئات الأمتار من مدرستها التابعة لوكالة غوث اللاجئين التي تشرف عليها هيئة امم بان كي مون

ينقلونها إلى المستشفى وهي في غيبوبة كاملة

يدخلونها إلى العناية المكثفة بمستشفى ناصر

ويبدل فريق الأطباء قصارى جهدهم لإبقائها على قيد الحياة

تمكث أربعين يوما على الحالة هذه، في اليوم الحادي والأربعين تفتح عينيها وتبتسم لأمها الراقدة إلى جانبها، تبكي أمها، وتغمر الدموع وجهها الحزين

يسألها طبيب جديد في المستشفى: أين أبوها؟؟؟

- أستشهد قبل إصابتها بشهر

- سننقل عائشة اليوم إلى مستشفى الشفاء في مدينة غزة لإتمام علاجها

وتستطيعين اللحاق بها غدا

- ومن أين لي أجره الطريق؟؟؟؟ حسبي الله خذوني معها!!!!

عيد العرابة

ها هو العيد يقترب، يحمل في يد لبعض الناس أفراحا وفي يده الأخرى يحمل لبعض آخر أحزانا، أسماء ما زالت تذكر عيد الأضحى الماضي، يوم ذهبت تبحث عن بعض عظم أو شحم أو لحم من هذا المحل أو ذاك حيث اعتادت محلات الجزارة أن تذبح الذبائح قبيل العيد بيوم أو يومين، يشتري من لا يستطيعون ذبح الأضاحي بعضا من لحم كي يسدوا به حاجة أطفالهم وبعض آخر يذهب ليبحث عن بقايا العظم والشحم التي يكون مآلها إلى النفايات في كثير من الأحيان.

قالت لها أمها: لو تذهبين إلى جزارة الحاج علي وتأتين لإخوتك الصغار ببقايا عظم وشحم فغداً عيد وكل عام وأنت بخير يا حبيبتي وقبّلتها. تدخل أسماء غرفة الصفيح الذي أكله الصداً أكلا تبحث عن مربولها الذي تخبئه في حقيبة المدرسة آه، تقول في نفسها، أخجل أن اطلب من أحد شيئا لبتني مت قبل ذلك وكنت نسيا منسيا، لكني لا أستطيع أن أعصي لأمي طلبا... رضاها خير من الدنيا وما فيها، ترى هل سيراني أحد وأنا ذاهبة!!! هل سيعطيني الجزار العظم أم سيقول لي يبعث الله، كما قال في المرة السابقة..

ألف سؤال وسؤال تشوش عقلها الصغير

غداً العيد، مريول المدرسة هو ثوبها الوحيد الجديد، تلبسه في غير موعد
المدرسة، ملابسها الأخرى رثة ممزقة، لا يليق أن تلبسها في العيد،
سينظر إليها آخرون على أنها فقيرة

لا أنا لست فقيرة أنا غنية والغنى بالله وحده،
أذهب إلى هناك إلى منتصف الطريق؟
وأعود فأخبر أمي انه لا يوجد عظم هذا العام
لا لن أكذب عليها، سأمضي إلى هناك، سأحضر العظم واللحم كي تفرح
أمي، ويأكل إخوتي الصغار

أبي أين أنت يا أبي؟؟؟
لماذا تركتنا الآن؟؟
لماذا لا يخرجوك من السجن فتذبح لنا خروفا جميلا كما الناس
والجيران!!!
الشيخ حسن نصر الله وعدنا عدة مرات أن يخرجك من السجن؟؟
عزام عزام الجاسوس خرج من السجن وأنت لا تزال خلف القضبان؟؟
من سيخرج الشرفاء أمثالك؟؟؟
اشتقت إليك
خذني إلى صدرك الدافئ
عبئني في قلبك
ضمني بيديك

يا رب من يستجيب دعوتي سواك؟؟؟
يا أيها الواقفون على عرفات قولوا: آمين

هل سيحضر أحد من الجيران اللحم لنا غداً ويريحني من هذا كله؟؟
هل صحيح أن بعض المسلمين يلقون الأضاحي في المزابل؟؟
إلهي إلهي استجب لي أنقذني
آاه ه لو طلبت مني أمي أن أذهب غدا ربما أحد سيحمل إلى بيتنا لحم العيد.

أبي هل أنت فرح بالعيد أم أنك حزين مثلي؟؟?
لا شك أنك حزين مثلي
حزين لأنك بعيد عنا
حزين لأنك في الأسر
حزين لأنك تعرف أننا لن نفرح في العيد
ولن نضحى
وتسيل دموعها على خديها
يوقظها من شواردها صوت أمها تتأدي:
- هل لبست مريول المدرسة يا أسماء؟؟؟؟؟؟

من يحاكم البحر

في ردة فعل عاجلة على ما قام به إرهابيو تسونامي التابعة لمملكة البحر من غزو فظيع لجزء من بلدية العولمة، قرر رئيس البلدية إرسال فرقة استكشاف لحصر الأضرار الناتجة عن الجريمة النكراء وذلك من أجل تقدير الخسائر وتقديم المساعدات العاجلة للمتضررين أسوة بما فعله إثر ما حدث في الحادي عشر من سبتمبر، حيث قام وكردة فعل سريعة بقتل عدة آلاف من الأطفال والنساء والشيوخ المجرمين الذين اعتقد أنهم كانوا السبب وأصدر أوامره أن على كل المجالس القروية والريفية ومجالس الحكم المحلي المنتشرة في كافة توابع البلدية استنكار ما حدث فوراً، حيث أصدر رئيس البلدية فرمانه الشهير أن "من ليس معنا فهو ضدنا" نداعى كافة الوجهاء و المخاتير وسائر الموظفين الصغار وأشباه الصغار إلى إصدار بياناتهم وإرسال قواتهم وتبرعاتهم لنيل رضا مولاهم رئيس البلدية.

أعلن رئيس البلدية أن ما قام به إرهابيو تسونامي المجرمون من خراب وتدمير وانتهاك لكل معايير حقوق الإنسان والحيوان والجماد يفوق كل تصور، فلم يحترم هؤلاء الإرهابيون حرمة البيوت؛ حيث قاموا بدخولها وترويع كل من فيها، وقتلوا الأطفال والنساء والشيوخ حتى الحيوانات والدجاج لم ترحمها هذه الفئة الضالة غير الآدمية، وقال إنه رأى حروبا كثيرة واجتياحات وتشريد وتقتيل وهدم ونسف بيوت، رأى ذلك في جنين

وبغداد والفلوجة وخانيونس وقندهار ورفح ونابلس والخليل وكربلاء والنجف وما حل بها من هلاك للبلاد والعباد، لكن ذلك كله تم بموافقة أهالي المذبوحين والمحروقين والمقتولين بطريقة حضارية وديمقراطية وإن كافة رؤساء المجالس القروية والمحليات والمخاتير والمستشارين قد تم أخذ رأيهم وتوافقهم بالموافقة الطوعية والاختيارية دونما أي نوع من الإكراه فبقاؤهم في كراسيهم مرهون طبعاً بموافقاتهم.

أصدر رئيس البلدية فرماناً عاجلاً بضرورة حصار البحر واعتقال جميع إرهابيي تسونامي المجرمين فرداً فرداً وتقديمهم للمحاكمة العاجلة العادلة وذلك حسب القوانين المعمول بها مع ضرورة استصدار قوانين طوارئ تتيح للبلدية اعتقال كل فرد شرب من ماء البحر أو سبح فيه أو أكل سمكا منه أو استخدم ملحا من ملحه أو ركب مركبا فيه أو نظر إليه أو أحب يوماً أن يذهب إليه أو يجلس على شاطئه أو حدثته نفسه أن يحبه وكل من له علاقة من قريب أو من بعيد أو حتى ذلك الذي تنفس يوماً نفساً أو اثنين من هواء البحر أو نسيمه أو رذاذه.

حاصروا البحر من كل جانب واتجاه، من الجو ومن البر، ألقوا عليه ملايين الأطنان من الصواريخ والقنابل والنيران الموجهة بالليزر، نرحوا ملايين البراميل والأمطار المكعبة من مائه حتى ضاقت بهم أرضهم، جمعوا آلاف الأسماك والمحارات والقواقع والكائنات الأخرى في عربات نقل عسكرية ودبابات، سجنوهم، نقلوهم في طائرات إلى أماكن بعيدة، سجنوا الماء في زنازين صغيرة، قيدوهم بالسلاسل، نزعوا عنهم

ملابسهم، استهزؤوا بهم وببحرهم، منعوهم من التبول أو التبرز إلا مرة واحدة في كل يوم أو اثنين، أطلقوا عليهم الكلاب البوليسية المدربة على عقر الأعضاء الجنسية للذكور والإناث، مارسوا معهم الشذوذ بكافة أنواعه، أجبروهم على ممارسة الشذوذ مع بعضهم البعض، بالوا عليهم، أطعموهم من برازهم، لفوهم بعلم أعدائهم، حققوا معهم بكل الأساليب.

ما زال البحر ينظر إليهم بهدوئه المعتاد، موجه الجميل يغازل الرمل والنخيل والشجر، يقبل الشاطئ كعهده، يكظم غيظه، يكتم غضبه، يسقي الإنسان من مائه، يرسل له الأسماك والأملاح، ويصنع الغيم ويرسله إلى السماء، صبر طويلا، انتظر أن يعود إليه أبنائه وأحباؤه، ولكن دون جدوى كان صراخهم وألمهم وتعذيبهم يؤرقه، لم يعرف النوم إليه سبيلا، كيف أنام وأبنائي في الأسر؟؟، لم يعرف الضحك إلى شفتيه طريقا كيف أضحك وفلذات الكبد مني ممزقة أيما تمزيق؟؟ كيف أذوق الطعام أو الشراب وعرائسي لا تجد ما تأكل أو تشرب؟؟ كيف وكيف وألف كيف من الأسئلة تؤرق فؤاد البحر؟؟

طلبوا من الماء في الزنازين أن يرحل عن البحر عن أبيه عن وطنه. طلبوا من الأسماك والحيتان والقواقع والمحارات ومختلف الكائنات أن تدلهم أين ينام البحر وأين يختبئ ومن أين يأكل ومن أين يشرب وأين يخفي أسلحته القاتلة، وأين يختفي الإرهابيون التسوناميون؟؟؟ ساوموهم نطلق سراحكم نمتعكم والكروت الخضراء والجنس والجنسية والشقراوات وكل ما لذ وطاب في الحياة الدنيا ولكم في الآخرة ما نشاء وما تشاؤون لكم ملك خالص فقط دلونا عليه.

يقرر رئيس البلدية إجراء المحاكمة للبحر، ولم تنته التحقيقات بعد، الأحكام جاهزة، أعدها وزير العدل بتقنية عالية، قرر الرئيس إجراء المحاكمة في أماكن سرية للغاية واستخدام كل أساليب التمويه والخداع وذلك لتضليل الإرهابيين عن مكان المحاكمة، فقد يعرفون المكان ويقومون بعمليات إرهابية تؤدي إلى فشل المحاكمة وإخفاقها ناهيك عن أعمال القتل والتخريب، تقوم وكالة الفضاء التابعة للبلدية بوضع كافة سفن وصواريخ الفضاء والأقمار الاصطناعية تحت تصرف الرئيس، وتقوم وكالة الحروب الفضائية والنووية بإعلان حالة الطوارئ القصوى ويتم تسليم الرئيس كافة المفاتيح والشفرات الخاصة بهذا النوع من الحروب وذلك لاستخدامها وقت الحاجة وعند الشعور بخطر داهم يهدد البلدية وأمنها وتوابعها المترامية في أنحاء شتى.

يتم تسريب العديد من الأخبار، بل المئات منها عن أماكن مختلفة حول المحاكمة وذلك في محاولة للتضليل، مئات بل آلاف من الأنفاق والمخابئ الموجودة تحت الأرض وفي الصحارى وفي الجبال وعلى أعماق تتجاوز أحيانا كيلومترين أو ثلاثة، كلها يتم إعدادها لحالات الطوارئ وإمكانية إجراء المحاكمة فيها، واستخدامها كمراكز قيادة في حال تعرض البلدية لهجوم إرهابي من قبل البحر المتربص بها شراء، يتم في أيام تطوير نظام اتصالات معقد، ويختلف عن النظم التقليدية الحديثة والمعاصرة، هذا النظام من أرقى الأنظمة ولا يمكن اكتشافه أو حل شفراته التي تعتبر غاية في التعقيد .

تم نشر عشرات من أشباه الرئيس في كل مكان، في اجتماعات عامة وسفر خارج البلدية وغير ذلك من أجل التمويه، أما الرئيس الحقيقي فقد

تم وضعه في كبسولة خاصة يحيط بها سبع كبسولات أخرى، بين كل كبسولة والأخرى عدة أبواب لا يمكن فتحها إلا باستخدام شفرات قمة في التعقيد، ويملك الرئيس واحدة منها لا يعرفها أحد سواه ويستطيع تغييرها وقتما شاء، يجلس في الكبسولات الأخرى المحيطة العديد من الحراس والمساعدين والمستشارين والطباخين والسكرتارية والطواقم المساعدة الأخرى، بينما يجلس الرئيس وحده في مقصورته وتم إرسال هذه الكبسولة إلى داخل شبكة معقدة من الأنفاق تحت الأرض وتم وضع حراسات مكثفة في كل مكان فوق وتحت الأرض، وعلى نقاط الالتقاء داخل الأنفاق، وتم ربط ذلك كله بشبكة من الأقمار الصناعية التي تراقب كل الحركات والسكنات من خلال دوائر مغلقة، مربوطة مباشرة مع أزرار أوتوماتيكية لإطلاق الآلاف من الصواريخ النووية والجرثومية والليزرية نحو أهداف ثابتة ومتحركة مرصودة تماما على مدار جزء من مليون من الثانية والتي يرجع الفضل في اكتشافها إلى احمد زويل.

تم نقل المعتقلين إلى المكان على دفعات متفرقة خشية تسرب أخبار عن عملية نقلهم، وتم استخدام طائرات وسيارات وشاحنات ومروحيات ووسائل نقل أخرى معروفة وغير معروفة وذلك في عملية تمويه بالغة السرية لم يسبق لها مثل على مدار التاريخ تم وضع كل معتقل منهم في ثلاثة أقفاص مصنوعة من مواد تم تطويرها في مختبرات وزارة الدفاع والمخابرات وهي عبارة عن خليط من مواد طبيعية وتصنيعية تبلغ مقاومتها مائة ضعف مقاومة الحديد الصلب، ودرجة انصهارها تصل إلى حوالي عشرة آلاف درجة مئوية، إضافة إلى عدم قابليتها للكسر أو النشر وتم وضعهم في زنازين صغيرة تحت الأرض، حيث هناك دائرة مغلقة

تصل بين هذه الزنازين ومقصورة الرئيس المتواجدة في الكبسولات السبع، تولى الرئيس بنفسه الإشراف على المحاكمة رغم إصداره تعليمات مشددة للقضاة العسكريين بضرورة عدم التهاون إطلاقاً في إصدار الأحكام المعدة سلفاً

جلس رئيس البلدية في كبسولته، يراقب وصول المجرمين من أبناء البحر إلى قاعة المحكمة الضخمة التي أعدت خصيصاً لأشهر وأعقد محاكمة في التاريخ، قال القضاة للمتهمين: إياكم والكذب فالرئيس بملكه وملكوته، رئيس البر والبحر والجو يرصد كل الحركات والسكنات ويراقبنا والويل لكل من يرفع صوته سواء منا أو منكم.

تم تشغيل موسيقى صاخبة وأنوار شديدة وخافتة، تثير الرعب حتى في قلوب الذين يعرفون ماهيتها، بدأت الأرض تهتز مع الموسيقى والأنفاق تتمايل، لم يعرف الرئيس والقضاة والجيش شيئاً مما يجري، ظنوه ازدحام الخيالات الصاخبة، كان البحر يتقدم نحوهم لقد فاض الكيل به ، لم يعد يحتمل كل هذا

زأر البحر زئير غضبه واهتز القاع منه والماء

فاض الماء حتى اعتلى كل البلدية وتوابعها

وملاً الأنفاق في كل مكان

صرخ الرئيس

صرخوا جميعاً

أطبق البحر أنيابه على فرعون

قبلة على خدما المرواني

(1) صلاة الغائب

كان يعيش في صحراء من الفقر المدقع ولا يهتم به أحد ، حينما استشهد مدافعا عن الشرف العربي أصبح نجم المكان المضيء في الليل والنهار قالوا: ليته عاش حتى يحضر هذا التكريم لشهيد يسمو
قال آخر: لقد كرموه هناك قبل هنا!! هناك حيث لا هناك هناك
وفي أماكن أخرى غير بعيدة عنه
طاردوا صلاة الغائب على الشهيد فكانت تحت الحراب !!

(2) لن تدفنوه

احتشد الآلاف يشيعون كيسا من عظم ولحم الشهيد إلى قصره في الجنان
صرخ طفل بينهم بأعلى صوته:
- لقد دفنتم الجسد وإني لأرى نوره صاعدا نحو الغيم هذا مالا تستطيعون
دفنه أبدا ولا يراه إلا القليل

(3) الخد المرواني

قالت الأرض الباسمة لوالد الشهيد بعد أن ووري جسده الثرى:
أتدري أن البذرة التي زرعت في رحمي

سوف تتبت سبعين ألف شهيد لميقات يوم الفصل الآتي!!
قبّلها على خدها المرواني وقال:
- أنا في انتظارهم جميعا في ظل زيتونة

(4) عناق

سألته زوجته: ماذا تحب أن أجهز لك اليوم؟؟

قال: كل ما تحبين

عاد، فوجد صورة ابنهما الشهيد وهو يلقي وصيته للعالم، تتصدر البيت
تعانقا طويلا بالدموع
بعد تسعة أشهر كانت تضع ثلاثة أقمار و زهرتين
يسبحون مع الغمام في انتظار سورة الفتح و سورة النصر

(5) فم الدبابة

كان بريئا جميلا طهورا هادئا رائعا كالندى
يحبه الأهل والجيران والأصحاب والأتراب حتى العدا
وجهه كقطعة من القمر ليلة البدر
كان جالسا يحفظ سورة الأنفال وسورة القدر
أخرجتهم الدبابات من البيت
لبس درعه وامتشق سلاحه وتفخخ في ليلة صيف
قرر أن ينتزع حقه الضائع من فم الدبابة كالليث

(6) الزهر

سأل الطفل قنينة العطر الساهرة على مدخل الوطن:

لماذا يحبك العاشقون؟؟

قالت: لأن بي ماء الزهر

وسأل الطفل قبر الشهيد: لماذا يعشقتك المحبون؟؟

قال: لأن بي روح الزهر

(7) امل الحمير

نهق الحمار جوعا بعد طول نوم وكسل

قدم له الراعي بعضا من ماء وبضعة من تبين أمريكي

و شيئا يقال عنه عسل

أكل الحمار، شرب، تبول، تبرز و لا عمل

نام الحمار فوق بوله والبراز

قال:

ما زال هناك أمل!

السما هي العنوان

سألت الأم طفلها الريان:

لماذا تتام كل ليلة فوق باقة من ورد وريحان؟؟

قال:

يوم استشهد صديقي عدنان

أدخلوه روضة من جنان

فوجدها مفروشة بباقات من ورد وريحان

رأيته يومها في المنام

"أنا لست في الأرض بل السما هي العنوان"

عراة والألف قبلة

(1) نور وقلم

هدم صهيون بيوتهم الصفيحية الحزينة التي أشقاها الشتاء وملح البحر
لم يبق فيها ولا منها شيء وهي تتطاير على وقع من القهر
"حورية" تتدأرى عند المساء بين قطع من ركام و أفواج من أحلام الزهر
بيدها كتاب ودفتر وقلم
هو كل ما استطاعت أن تنجو به من بين أنياب الدهر

قالت لها أمها: اذهبي وأشعلي الشمعة من بيت خالك على أطراف المخيم
قالت: بل أنورها من قبر حبيبتى الشهيدة أسماء بنت صفى التي كانت
تشاركني نفس المقعد
وتغرق عينها في بحر دموع

(2) مسك

طرقت "حورية" بيت الشهيدة أسماء الساكنة في المقبرة الغربية
غمست يدها في تراب قبرها ومرغت جسدها الندي في عطره الفواح
وضعت في دمه حفنة من التراب وكأسين من المسك المتسامي
أعطتها أسماء قمرا وقالت:

- أعط أهل المخيم من هذا النور الساطع

(3) ألف قبلة

حملت "حورية" القمر في يدها وأحست كأنها تحمل الكون كله
قبلته من وجنتيه ألف قبلة ولم يرتو فمها الطري بعد
سالت دموعها على خديه فرقع يديه وداعب خصلات شعرها الراقصة
على جبينها
ضمته إلى صدرها وخبأته في أعماق قلبها حتى لا يراه صهيون
أطل القمر من عينيها البريئتين العسليتين يفضح ما كانت تود أن تخفيه
همس القمر في آذان الأطفال الصغار الواقفين تحت المطر
والمرتعشة أجسادهم من لسعات البرد التي ما رحمت الوجنتين والأذنين
وبأيديهم سورة الإسراء يرتلونها ترتيلاً وقال:
- سيروا يا أحبائي خلفنا.

(4) مقاومة

احتشد الأطفال ينشدون أناشيد الشهداء الذين مضوا حول "حورية"
وهي ترندي حلة من أنوار القمر الزاهية الباهية
وعطور "أسماء" تعبق الكون بكل ما فيه ومنها يولد الندى
تسير "حورية" كالغزالة وسط الركاب والصفيح ورائحة الدخان والدم
والبارود
وزعت على كل واحد منهم قمرا ودرتين من لآلئ التراب
كي يقرأ دروسه ويحل الواجبات ويقاوم الاوغاد

(5) العرأة

حمل كل طفل بيده قمرا جميلا وسللة عنب وبلح وتين
قد مضت على أسرته الأيام الطوال في العراء
وهي تفترش الغبراء وتلتحف السماء
ولا تجد الماء ولا الغذاء
ولا الدواء ولا الكساء
بعد أن هدم صهيون بيوتهم
خبأوا الأقمار في دمهم والدرر في العروق
فصهيون يلاحقهم ويطارد منهم الأحلام و الحقوق

(6) الطعام

أطعم الأطفال الآباء والأمهات والإخوة والأصدقاء والجيران والعصافير
والفراشات
بقي الطعام كما هو وكأنما لم يأكل منه انس و لا جن
وزعوا منه على المخيم كله ولم ينقص منه شيء بعد
قالت "حورية" لأترابها:
- أطمعوا كل الناس ورشوا ما تبقى من المسك على عرائس المجد.

(7) الفرار

امتألت قلوب الأطفال نورا وما عاد للدم فيها من نصيب

توضأ الأهل من النور ولم يعد للماء بين أيديهم من وجود
جاء صهيون يحمل الحقد ويهدم بقية الصفيح العنيد
لم يجدوا غير أنوارٍ تتلألأ في كل مكان بعيد كان أوقريب
تصدت لهم "حورية" بأنوارها وقريناتها والصفائر والعيون العسلية
تدخل الأنوار المنطلقة من عيون الأطفال عيون العدا فتعميها
ارتعد صهيون و كأنما فر من قسورة فما عاد له من وجود

أنثى قذرة

(1) بغداد

بينما كانت النسما تداعبُ أشجارَ النخيلِ الراقصاتِ في سماءِ جيشِ
المعتصمِ
وعيونُها الخضراءُ تتلألأُ في ماءِ النهرِ المسكوبِ على عرائسِ القمرِ
الباسمةِ
والندى يرُخي أطرافه على أحزانِ الأرضِ كي تتوضأَ من جديدِ
بشهدِ يفوخُ من دمِ الشهيدِ
وترتدي ماجداتُ الفراتِ أنوارَ النجومِ وبراءةَ الأطفالِ العاشقينِ الثرى
وهُنَّ يقفنَ شامخاتٍ فوقَ مناراتِ الضفافِ
كما النخيلُ يُرمى بقذائفِ الأوغادِ فيؤتي شهيداً رُضياً
وهُزي أيتها المجاهداتُ الماجداتُ جذعَ النهرِ
يساقطُ عليكنَّ من غيمِ معتصمِ مقاوماً أبياً

(2) الباستيل

وفي بطنِ النهرِ يرقدُ باستيلهم الموعودِ
وأحشاؤه الحبلى بديمقراطيتهم الخاطئة الكاذبة
فاطمة بنتُ الرشيدِ العفيفة الطاهرة
جردها من ثيابها الساترة

تفتش الأرض عريانةً خامدة
 ما عادَ في صدرها نَفَسٌ وما كانت عروقها نابضة
 و"ليزا" الكافرةُ الفاجرةُ
 تتادي "جون": أقبِلْ يا عشيقِي
 كي تصورني وتبقى الصورةُ محفورةً لنا أبداً في شَجَرِ الذاكرة
 وتربطُ "ليزا" رسنَ الكلبِ حولَ جيدِكَ الرقيقِ يا فاطمة
 تضحكُ، تهزأُ، وبقدميها تركلكِ يا عروسَ الفراتِ الهائمةِ
 تفرشُ "ليزا" على شفتي شيطانها قبلةً غاويةً
 يرجعُ للوراءِ، يصورُها وهي على صدرِ فاطمةَ ، جائمةُ
 يقفان على صدرها ويغيبان مرةً أخرى في قبلةٍ سادرة

(3) حُبلى

بعد شهرين وازدادوا أياما
 هاتفته من وراء البحر قائلة:
 - أتذكرُ يا عشيقِي يومَ دُبْنَا معاً في قبَلتَيْنِ فوقَ صدرِ تلكِ "؟؟؟"
 - نعم أذكرها وكانَ اسمُها يا معشوقتي- فاطمة
 - حُبلى أنا مُذْ تلكَ الليلةِ الباهرة

(4) وضوء

توضأُ المعتصمُ من نسائمِ الفراتِ
 وحطَّ رذاذُ الماءِ على صدرِ فاطمة
 صَحَّتْ من سُبَاتِهَا تحتَ أَقدامِ الجبابرةِ

عطستُ، حمدتُ، نفضتُ عن روجِها غبارَ الكافرة
حملها الرذاذُ على جناحيه إلى المرقد
توضأتُ من نسيمِ الفجرِ وصلتُ ركعتينِ فوق الأرضِ العامرة

(5) كان زهوقا

طارَ النسْرُ وغسلَ ماءَ الفراتِ بيديه
صلى المعتصمُ في جوفِ النهرِ ركعتينِ
طارَتْ فاطمةُ من المرقدِ للمسجدِ على جناحينِ
توضأتُ بماءِ الفراتِ وارتقتُ ميلاً و سجدتَينِ
فاضَ الفراتُ على كلِّ الأرضِ يغسلها
توضأتُ الأرضُ برذاذِ وضوءِ المعتصمِ و الفاطمة
تسامى نورَ الرذاذِ يحرقُ الأدرانا
فزهقَ الأراذلُ في الأرضِ زرافاتٍ و وحدانا

(6) ذر الفناء

صرختُ "ليزا":

- "جون" يا عشيقى إني وجنيتى نختق
- وأنا يا عشيقتى بالنار أحترق
- فاطمة "اللعيبة" ترش علينا ذر الفناء
- جسدي يا ليذا أضحى رمادا
- وأنا يا جون وجنيتى أضحينا سرايا

عطور الفجر

(1) العطور

سألت عبير الفراشة الساكنة في عش على أغصان الغيم تظلل أم الشهيد:
هل هناك فرق بين عطور الرجال والنساء؟
قالت الفراشة: لم أجد فرقاً بين أطياف العطر المتسامي من دم محمد
الدرّة ودم إيمان الهمص!

(2) النوار

زرعت عبير شجرة زيتون فوق قبر الشهيدة إيمان فخرج نوارها بتلات
من النعناع والريحان والياسمين.
سألتها: ألسنت زيتونتي التي زرعت يوماً؟
قالت: نعم واسمي إيمان!!

(3) السنابل

زرعت عبير آفا من حبات مسبحة دم الشهداء
نمت سنابل الأرواح في بيوت شهداء الزهور
مرت الغزالة على بيت إيمان كي تسلم على السنابل
شربت كأساً من مسك الندى كانت تشربه الشهيدة كل صباح
قالت لها الأم: ايتني كل يوم يا ابنتي فإني أرى فيك ابنتي

(4) النسائم

قالت عبير لأختها:

سأل القمرُ البحرَ من أين لك هذا الشذا المتطاير مع نسائمك عبقاً؟
قال البحر: كنت في وداع زهرة استشهدت في بيت المقدس فزادته ألقاً!

(5) الريش

جلست عبير على أجنحة الورود وقالت لأختها:

طرتُ مع العصافير في السماء
طارَت السماء بألف جناح من مسك وألف جناح من نور
قالت العصافير للسماء:

لا تسرعي لقد تعبنا

قالت السماء:

لست أنا من يطير إنما تحملني أرواح الشهداء في فلسطين والعراق
والأفغان فهزت العصافير رؤوسها ومضت.

(6) الأجنحة

قالت عبير لإيمان:

قولي لصفائر السنابل إنك ذاهبة إلى القدس للصلاة
وقولي للموج أن يحملك لقبر شهيد طاب شذاه
وقولي للريح أن تحملك نحو قمر هام في القدس سناه
قالت: لا، سأقول للسنابل أن تحمل الوطن على أجنحتها وترش بذور
المسك من دم الشهداء فوق عواصم الأعراب لعلها تستيقظ!! يا الله

(7) الحروف

تساقطت الحروف من السماء لآلئ من مطر

ملأت الكون من عبيرها الفواح عطرا

جمعت عبير آلافا منها في حجرها المنسوج من عروق الندى

زرعتها وقريناتها على شاطئ الشهادة الممتد على طول المدى

نبتت الحروف على الأرض

زينتها لوحة مكتوبا عليها بالأقمار "الشهيد حبيب الله"

ذهبت عبير إلى حضن أمها

- أريد أن أموت شهيدة يا أماه

دم الزهور

سماح زهرة ندية حفظت كل أناشيد الصباح
أمسكت يد أختها الصغيرة وسارتا كملكين جميلين على الرمال الذهبية
للمدينة
تتظران إلى الغرب فتكتحل عيونهن بزرقة بحر يقف شامخا يحرس
أحلامهن الجنينية الزاهية التي تنمو في رحم النعناع
تسيران نحو الشمس وهي لا تكف عن "زغولة" عيونهن العسلية التي لم
تكتحل بعد إلا بزهور اللوز والبرتقال والياسمين
سنذهب غدا من الطريق الآخر حتى لا تعاكس الشمس عيوننا: تقول
سماح لأختها، ترد أختها فتقول: الطريق الأخرى موحشة وأخاف أن
أسير فيها

ترقبان الطائرة الزنانة التي تجوب سماء المخيم لأيام مضت، تستمعان
صوتها الوقح وهي تمسح كل ذرة من ذرات الثرى، تصورها، تراقب
المقاومين في كل لحظة، تقول سماح لأختها:
- هذه الطائرة هي التي اغتالت الشيخ الشهيد أحمد ياسين
- وهل هناك أحلى من أن يموت الإنسان شهيدا؟

تغنيان معا وبغفوية طفلتين بريئتين:

"على القدس راحين شهداء بالملايين"

تنتبهان فإذا عشرات من الأطفال يسرون خلفهما ويرددون نفس النشيد حتى طغى على صوت الزنانة اللعينة، فرحت الطفلتان أنهما قد هزمتا بصوتيهما الرخيمين صوت الشياطين الطائرة التي تقتحم سماء الوطن ترفعان صوتيهما ليستمتعا بصداه يتردد في كل أزقة المخيم الضيقة وما أجمل الصوت وهو يعود إليهن من هناك.

يرفع الأطفال أصواتهم كذلك فتتبع أرجاء المخيم بشذا النشيد المتفجر من حناجر فراشات لم يعرفن بعد سوى البراءة والطهر والحنان يدخلون باب المدرسة مرددين أنشودة القدس الحبيبة وطلب الشهادة تخرج المعلمات من غرفهن على وقع نايات تضرب على أوتارها حناجر من بتلات الزهور...

ينظرن إلى هذا المشهد الملائكي البديع والتلميذات ينسبن نحو المدرسة بهدوء كجدول ماء رفرق تغرد على صفحته عصافير يعجز اللسان عن وصفها وجمالها.

تقف مديرة المدرسة أمامهن وعيناها ترسلان الدموع في كل اتجاه وتفخر أمام المعلمات كلهن: ألم أقل لكن إنها من أنبغ التلميذات؟؟
تتخرط المعلمات وينشدن وراء سماح

تسيل دموعهن على وجناتهن أنهارا... أخذت جدران المدرسة تهتز وتردد الغناء كما الأشجار والورود والزهور في ساحة المدرسة

كل الدنيا تغني للقدس وتحن إليها وتغازل مسجدها وقبتها وصخرتها وكل
ذرة من ثراها
والطفلتان الجميلتان تتقدمان عرس القدس في مدرسة القائد الفاتح طارق
بن زياد

تعلمن مديرة المدرسة وقف النشيد وابتداء طابور الصباح:
وبعد التمارين الرياضية تعطي سماح منصة الإذاعة المدرسية وتلقي
كلمتها "سبحان الذي أسرى... " في مثل هذا اليوم زار رسول الله (صلى
الله عليه وسلم) فلسطين في زيارة ربانية، نزل بساحة المسجد الأقصى،
رأس أعظم مؤتمر للأنبياء في التاريخ، صلى بهم إماما ثم صعد إلى
السماء، هنا على هذه الأرض الطيبة حطت قدماه الطاهرتان لتشرفاها إلى
الأبد، ما زالت رائحة الطيب المتناثر من جسده الشريف ومن روحه
الكريمة تملأ المكان والزمان!! أنتم اليوم أيها الأحباء والحبيبات
تستنشقون من هواء استنشقه أعظم قائد عرفته البشرية، ها هو الهواء
المعطر بأنفاسه (صلى الله عليه وسلم) يدخل الرئتين منا، يذوب في
أجسادنا وفي دمننا هل تشمون رائحة المسك التي تفوح من دم الشهداء
الذين يروون أرضنا كل يوم؟ إنها من بقايا رائحته الزكية يوم أبي إلا أن
يزورنا من قبل أن نولد ليؤكد عنوان هذه الأرض، من منا نحن تلاميذ
وتلميذات هذه المدرسة لا يرغب أن يستشهد في سبيل الله والوطن؟ "
وصرخت بأعلى صوتها أجيبيوني بربكم وبأعلى صوتكم:

- من ربكم؟

فكان الجواب مزلزلا لكل الدنيا

- الله

- ما دينكم ؟

- الإسلام

- من قائدكم؟

- الرسول محمد

وقد كان الجواب لكل سؤال يجري الدموع في المآقي، حتى غدا المشهد ملائكيا بزهراته وزهوره واستمرت سماح في كلمتها ومديرة المدرسة والمعلمات مشدوهات مأخوذات بما يسمعن من عمق في كلمة طفلة تقف على أعتاب زهرتها التاسعة، وكأنها ابنة العشرين أو يزيد، وانتهت سماح من كلمتها، وليس أحد من الحضور يود أن تنتهي وتقبلها المديرة قبلتسين على وجنتيها وقبلة على جبينها وتقول لها:

-أنت أحب الناس إلى أيتها الزهرة، وتتساب دموعهما معا

وتعلن المديرة في الإذاعة المدرسية أن غدا سيكون يوم تكريم لسماح تقديرا لها على نشاطها وتفانيها في خدمة المدرسة، تفرح سماح ولا تكاد تصدق ما تسمع، وتكاد الدنيا كلها لا تسع حبوها وسرورها

سأذهب إلى أمي أبشرها وأقبلها، سأنقل إليها دعوة المديرة لحضور حفل التكريم، سأحفظ بقية سورة الإسراء هذا اليوم، وسأحفظ أجمل النشيد لنغني غدا أمام المدرسة لفلسطين والقدس والأقصى والأسرى والشهداء.

تجمع المعلمة سماح وتسعا من الزهرات لترتيب أمور الحفل في الغد يجلسن وسماح تشطح بفكرها وفي ذهنها كيف يكون غدا أجمل أيامها

وأيام أمها، تود أن تزرع الفرحة في قلب أمها بعد الحزن الذي أصابها في السنة الماضية وذلك بعد استشهاد أخيها أحمد، دموعها تتهمر على وجنتيها، آه اليوم سأزرع الفرحة في عيني، أمي ترى هل ستفرح أمي؟؟ هل سوف أراها تضحك؟؟ تزغرد؟؟ أم أنها سوف تستقبل هذه الأخبار ببرود؟؟ يا رب فرِّح أمي!! يا رب احفظها لي.

تحلم... هاهي تسير في الطريق، هاهي تقترب من بيتها، دقائق وتكون في حضن أمها، تستعجل الخطى، تنظر إلى السماء، ترى عصفورا يطير، يا إلهي لو أن لي جناحين مثله لأحط على قلب أمي.

تتقض الفدائف عليهن في الغرفة، تصب جام جهنمها على الزهور ومعلمتهن، تصرخ بأعلى صوتها أمي أمي أبي أبي أعمامي أحوالي يا كل الدنيا من يسمعني؟؟؟ هل هناك أحد يسمعني؟؟ أريد أن اذهب إلى أمي أفرحها أحفظ سورة الإسراء غدا حفلة تكريمي... أمي أمي، بالله عليكم أنقذوني. ترتمي الزهور ومعلمتهن على الأرض ودمهن يفور من الأنف والفم وجروح تملأ أجساد النعناع.

تمكث سماح مغمى عليها عشرة أيام في مستشفى ناصر، في اليوم العاشر تصحو من سباتها الطويل، تجد أمها إلى جانبها، تقول لها بلهفة:
- غدا يا أمي سيكون حفل تكريمي في المدرسة، فهل ستأتين؟؟

الخازوق السابع

(1) السيف

اشترى عربي سيفاً مطرزاً بالذهب
وبقايا من حكايا العرب
كانت تعشعش في زوايا الذاكرة
وتسكن على شواطئ أحلام باهرة
فاشترط البائع عليه:
أن لا يطلق السيف سهيله إلا على الشعب
والأرض والثرى و الماء والعشب

(2) الصاروخ

واشترى عربي صاروخاً مزخرفاً
موشوم على مرافئه علم عربي بالوجه و التقفا
وبقلبه نطق عربي قد صفا
فاشترط البائع عليه:
استخدمه ضد من من جيرانك قد جفا

(3) المدفع

واشترى ثالث مدفعاً منمقاً
من فرط جماله قد ترونقاً

فاشترط البائع عليه أن لا يستخدمه أبدا
حتى يأكله الصدا
كما تأكل النار الحطباً
فيعود إلى الأرض التي خرج منها سالماً مسلماً

(4) النفط

وباع عربي من أرضه الحبلى بالحرز نفطاً
سموه يوماً من بهاء الحسن وحسن البهاء ذهباً اسوداً
ففرض عليه المشتري ضريبة جديدة
أسماها ضريبة الذهب
مقدارها كنصف سعره
مغلوب على أمره
و قد ظن انه غلب

(5) اتفاق

وعقد عربي اتفاقاً كي يدخل به فردوساً موعودة
مع دولة في أقاصي الكون بعيدة
فدسوا في خبز الاتفاق
دسماً ناقعاً و دماً يراق

(6) الذهب

اشترت الحرباء الرقطاء ألف طن من الذهب

الذي تنتجه أرض بلادي المورقة ذات الخصب
بالسعر الذي تريد
وباعته لي ثانية بألف ضعف و لديها مزيد

(7) اغتصاب

رفع عربي سيفه الصمصام على المغتصب
دفاعا عن شرف الوردية الجورية
فاغتصبوه وأرضه وشعبه و الجمهورية
على قارعة الطريق
فقال الحكيم:

هذا والله هو سابع الخوازيق!!
فاحتشد الأطفال وبقايا من الغزالات تجمع ما اهترأ من نيوب
وأدعياء الذكورة في غيهم سامدون
ومن وراء حجابٍ على مشهد اغتصابٍ أمهم يتفرجون!!
فغدت الأطفال والغزالات في منتصف الطريق
تسن السيوف بالصخر
حتى غدا يزيناها الأحمر القاني
ويشعل دنياها البريق
ولا توقفها مهما تكالبت عليها
كل الخوازيق

سبع فضائح رسمية

(1) العين

تقدمت رصاصة عارية ملفوحة بالنار من عين صفاء وذهبت بها بعيدا داخل رأسها الحالم في الوردية الجورية، ما زالت صفاء وعلى أحر من الجمر الذي أوقدته الرصاصة في عصافير رأسها المغردة تنتظر عودة عينها اليمنى من رحلتها على متن طائرة من الرصاص المسكوب.

(2) الرأس

صفاء ببراعة مسبحة الندى المعششة في قلبها، قالت لأمها التي فقدت رأسها بصاروخ صديق من طراز جو-أرض فوق الأرض العربية المعبقة بنسائم دم الأطفال: متى سترجع عيني يا أمي؟ قالت الأم: حينما يرجع رأسي يا بنيتي!! قالت صفاء بطهر دمها: إذن دعيني أحل واجباتي المدرسية حتى يعود رأسك المسروق يا أماه.

(3) الجسد

سألت الأم الحزينة أشلاء جارتها المسكينة: هل تذكرين الصاروخ الذي طير في سماء الحقد رأسي قبيل لحظات؟ قالت الجارة: نعم لقد رأيتُه حينما كان مارا بجسدي حيث تعطلت كل إشارات المرور، ولم تتمكن الشرطة العربية من إضاءة الإشارة الحمراء لحظتها.

(4) إشارة مرور

طلب قطر عربي متقدم من دولة عربية متحضرة تركيب إشارات مرور حديثة في القطر فأجابوه بعد انتهاء الحرب لأننا نخشى أن تعرقل الإشارات الضوئية حركة سير الرصاص والصواريخ والقذائف المارة في فضاءات أدمغة الأطفال الذين يهددون الاستقرار الكوني أو المراكب التي تسير في دمائهم.

(5) الفرات

سأل طفل عربي جنديا يبول في نهر الفرات: لماذا تعملها هنا؟ قال الجندي: جئت خصيصا كي أرش فيه أسمدة التخصيب للديمقراطية، نادى الطفل على المعتصم: سيدي، فلم يجبه غير الصدى الذي ضاع فوق الأرض العربية، وأسرع النسر نحو النهر يطير به في سماء الفراش

(6) الصدى

طلب رئيس الاستخبارات من جيوش اليوم والغربان جمع صدى صوت الصقور والنسور في قوارير بلاستيكية مصنوعة من النفط العربي،

خرجت البوم والغربان في الليل تتعسس طريقها ورجعت وقد عبأ صدى
لهاتها كل القوارير حيث أبت القوارير إلا أن تشتعل في الطريق كي
تتحرق الدنس الذي تحمله البوم والغربان.

(7) الفراشة

سأل العصفور الفراشة التي كانت تحاول أن تسبقه في الطيران فوق
الأرض العربية: لماذا تسرعين؟ قالت: يأجوج ومأجوج وصلوا!! سأحشد
جيش الفراش، يا جيش الفراش اخرجوا من مساكنكم، فصرخ العصفور
يا معشر العصافير هلموا!!

عيناك غابتا نخيل

سنة ربحانة دلفت في شهر رمضان إلى زهور ربيعها العاشر هكذا
تؤرخ لها أمها فقد كحل نور القمر عينيها في ليلة القدر عيناها
الخضراوان تجعلان أمها دوما تتشد مطلع رائعة الشاعر العراقي الفذ بدر
شاکر السياب:

عيناك غابتا نخيل ساعة السحر

أو شرفتان راح ينأى عنهما القمر

كانت الأم تدعو الله أن يرزقها زهرة ملائكية ينعكس في مرايا عينيها
نخيل العراق الشامخ فرزقها الله ملاكا صغيرا في ليلة القدر أسمتها
"سنة" تيمنا بسنة الليلة المباركة، كبر الملاك وأضحى العصفور النطاط
يزين البيت ويزيده جمالا وبهاء، جلسوا على مائدة الإفطار ليلة القدر
العاشرة لسنة في بيتهم الذي يطل على ضفة النهر الرقراق.

رفعت سنة يديها الطاهرتين البريئتين المتوضئتين إلى السماء:

- اللهم انصر الإسلام والمسلمين في فلسطين والعراق وأفغانستان، اللهم
اغفر لي ولوالدي وللمسلمين يوم يقوم الحساب، اللهم تقبل صيامنا وقيامنا"
فجأة ارتمت سنة وسط مائدة الإفطار مضرجة بنور دمها الناصع يتناثر
دمها كنافورة في أطباق الطعام التي تزين المائدة الرمضانية

رصاصه تخترق شباك البيت ومن ثم إلى صدر سناء لتخرج من ظهرها.

تحمل سيارة الإسعاف الأسرة الصغيرة إلى مستشفى عسكري ميداني
تدخل الطبيبة "كاتي" يرافقتها فريق طبي إلى حيث ترقد الزهرة سناء
ما زال بها رفق من حياة وقلبها اليانع يتشبث بنور القمر
عيناها الخضراوان مفتوحتان تحلقان عبر السقف نحو السماء نحو الله
تمسك الطبيبة أدوات الجراحة وتبدأ في عملية جراحية
تخرج الطبيبة "كاتي" حيث الأب الحزين وتقول له بلكنة غريبة دخيلة
على النخيل والتراب:

- البنبت ماتت

يحملها أبوها على يديه ملفوفة في ثوب أبيض

يدخل البيت ويوجهها نحو القبلة

يكشف الغطاء عن وجهها ليقبلها قبلة الوداع الأخير ويرى ويا لهول ما
يرى ويصرخ:

- أين عيونها الخضراء أين عيونك يا سناء؟؟

قالت تقارير استخباراتية عسكرية أوروبية أن تجارة رابحة أخذت في التزايد في الأسواق الأمريكية إثر قيام فريق من أطباء أمريكيين بنزع الأعضاء البشرية من القتلى وبعض الجرحى قبل القضاء عليهم لبيعها إلى المراكز الطبية والمرضى في أمريكا وأوضحت أن عناصر أوروبية من التحالف لاحظوا جنثًا مشوّهة ومنزوعة الأعضاء وأخبروا قياداتهم العسكرية، لكنها طالبتهم بالصمت وعدم الخوض في هذا الحديث، بينما قامت هذه القيادات بكتابة تقارير سرية حول الأمر، وتم إرسالها إلى وزارات الدفاع الأوروبية للإحاطة.

حينما يعشق الأطفال

ثلاثون من الزهور والورود يجلسون على بتلات من ندى الوطن، بعضهم قد ابتلت ملابسه بماء الشتاء فأخذت أسنانه تصطك ببعضها اصطكاكا ، والبعض الآخر تلتصق أعضاء جسده في بعضها من لسعات الشتاء في هذا الصباح، وطائفة ثالثة تقفز من مكان إلى مكان غير عابثة بنحلات البرد التي تحوم بين المقاعد، ومجموعة رابعة تغني للقدس وتعزف بأكفها النعناعية أجمل الألحان بالضرب على خشب المقاعد دخل الأستاذ خالد، مدرس التربية الرياضية الفصل كعادته مرحا مبتسما، لم يلق بالآ إلى الشغب الذي يملأ الفصل ويكاد صداه ينتقل إلى كل أرجاء المدرسة، وقف التلاميذ وهنقوا بأعلى صوتهم:

أهلا وسهلا ومرحبه

بالأستاذ خالد

اللي نوره أقوى من نور الكهربه

ابتسم المدرس الذي لا تغادره ابتسامته الجميلة الرائعة والمرسومة بريشة المبدع (سبحانه) على ثغره الضحوك ووجهه البشوش وهي الابتسامة التي تضيء على جو المدرسة نكهة خاصة وعبقا متميزا يشقائق إليها التلاميذ كما المدرسون كيف لا وهو المدرس المحبوب من الجميع وهو

الحاصل هذا العام على لقب المدرس المثالي، ليس على مستوى مدرسته فحسب، بل على مستوى منطقتة التعليمية بأكملها. سلم المدرس على تلاميذه، فردوا جميعاً وبصوت أنشودي مرتفع: وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته.

كان الجو ماطراً، والرياح شديدة، والبرد القارس يكاد يقيد التلاميذ بمقاعدهم، لم يصل جميع التلاميذ إلى مدرستهم، يوشوش بعض التلاميذ بعضهم:

لماذا حضرنا اليوم إلى المدرسة في هذا البرد الشديد؟
ربما نأخذ اليوم أربع حصص بدلاً من ست!
ربما يعطينا بعض المدرسين حصص تقوية اليوم!
وقال آخرون:

نريد من المدرسين اليوم أن يحدثونا عن الجهاد والشهادة والأقصى
قال أشرف (عريف الفصل وهو الطفل الذي لم يتجاوز العاشرة من عمره بعد):

- لو سمحت أستاذي خالد، أود أن أنقل إليك رغبة التلاميذ، فهم قد أجمعوا على عدم الخروج من الفصل اليوم بسبب البرد والمطر.
- وماذا سوف نصنع في حصة اليوم؟
- حدثنا عن الجهاد والشهادة يا أستاذ من فضلك.

ابتسم الأستاذ كما هي عادته، وبدأ يتحدث عن الجهاد في سبيل الله ويصف لهم المعارك الخالدة والفاصلة في تاريخ الأمة الإسلامية..

تخيل تلميذ نفسه انه يحمل السيف الصمصام في يده ويقاقل أعداء الله وتخيّل آخر نفسه وهو يحمل القاذف على كتفه ويدك به حصونهم وصياصبيهم وثالث يدافع عن مخيمه الذي يجتاحه بنو صهيون بكرة وعشيا ورابع يحمل بندقيته ويدافع بها عن بيتهم الذي هدمه جنود الاحتلال قبل أيام معدودة وخامس يقول في نفسه: كيف أسمح لهم أن يهدموا بيتنا حتى غدوت لا أجد كتابا ولا قلمًا ولا دفترًا، احترقت ملابسني وفراشي، لم أجد ما أذهب به إلى المدرسة في اليوم التالي، بت ليلتها في بيت خالي، وخجلت في الصباح أن أفطر مع أولاده، وخجلت أن ألبس من ملابسهم المدرسية، وسادس يتذكر كيف قتلوا أخته التي تصغره بعام واحد وهي تجلس على مقعدها في المدرسة وسابع وثامن وعاشر وعشرون.

عاشوا لحظات النصر والعزة في غزوة بدر ولحظات أخرى في معركة اليرموك والسيف المسلول وهو يؤدب أعداء الله، ولحظات ثلاثة عاشوها في فتح المسجد الأقصى وكيف دخل أمير المؤمنين عمر بيت المقدس ماشيا على قدميه وخادمه يركب الدابة وبثوب أمير الأمة سبع عشرة رقعة، بل نيشان عسكري رفيع كانت دموع الأستاذ تسيل على خديه حبا وشوقا، وحرنا على ما آل إليه حال المسلمين والعرب اليوم ولم تبخل عيون التلاميذ بدموعها ففاضت هي الأخرى كما عيون أستاذهم، وأعطى بعضهم البعض مناديل الورق لتجفيفها، فيما حاول بعض منهم حبسها إلا أن كهرياء التاريخ والانتصارات العزيزة قد سرت في كل كياناتهم وأحاسيسهم ومشاعرهم حتى غدت أرواحهم وكأنها تحلق في أرض غير

الأرض وفي سماء غير السماء، يا إلهي إنه تاريخ جميل وناصع لماذا لا يعلموننا إياه كل يوم وكل لحظة؟
قالها أشرف في نفسه وهو يغالب دموعا تكاد تتفجر عيوننا من بحر مقلتيه وبينما الأستاذ خالد منهمك في سرده لروائع التاريخ الناصع ومعاركه المظفرة وأسوده الميامين.

نظر من شباك الفصل وعصفور صغير جميل ذو لون أخضر مُذهَّب يقف على حديد الشباك ويمد جيده الطويل إلى داخل الفصل، ويتفحص وجه المدرس والتلاميذ، ويدورّ عينيه في وجوههم وجها وجها، كأنما يعرفهم منذ زمن ويقرأ أسماءهم فردا فردا وتلميذا تلميذا.

التفت التلاميذ إلى هذا العصفور الجريء، توجه بعضهم ووقف إلى جانب المدرس ظل العصفور كما هو، ينظر ويتفحص، تراكم التلاميذ حول مدرّسهم، والعصفور ينظر ويغرد ويقفز ويرقص وكأنما يشير بعينيه إلى الجميع أن غنوا معي وفجأة دق جرس انتهاء الحصة، قال أشرف للأستاذ خالد:

لكنك لم تحدثنا عن الشهادة كما طلبنا منك يا أستاذ؟

سأحدثكم غدا إن شاء الله

وغادر الأستاذ الفصل ووجهه ووجوه التلاميذ لم تزل غارقة في بحر فياض من الدموع وما زال العصفور يرقبهم ويودع الأستاذ الخارج من الفصل بعينين تمتدان بعيدا بعيدا.

عاد الأطفال إلى بيوتهم يحدثون أمهاتهم وآباءهم وإخوتهم وأخواتهم حول أحاديث الفتح والنصر والقدس واليرموك وصلاح الدين فبكوا مرة أخرى وأبكوا أهليهم معهم، وأنهم غدا سوف يعيدون على مسامعهم ما سيقوله

لهم الأستاذ خالد عن الشهادة وأجر الشهيد وكراماته وفضله وأنوراه.

في الصباح، ذهب التلاميذ إلى المدرسة وكلهم شوق لأحاديث الشهادة والشهداء، إلى الابتسامة الجميلة التي يحوظهم بها الأستاذ خالد، إلى طريقتة السرديّة المشوقة وهو يصف لهم المعارك الفاصلة. ولجوا إلى باب المدرسة زرافات ووجدانا وجدوا مظاهر غريبة... أبواب الفصول مغلقة... العيون باكية... الدموع تجري على الخدود... الوجوه الحزينة لا أحد يتكلم. توجه إليهم أحد زملائهم، والذي سبقهم إلى ساحة المدرسة ودموعه تتساقط على وجنتيه وقال:

هنئنا له وهنئنا لكم أستاذنا خالد استشهد فجر اليوم في عملية اقتحام بطولية.

أمه

نسرين وكما توقعت

جاعتها آلام المخاض مبكرة عن موعدها بأيام

وبعد منتصف الليل بقليل

هل تصبر للصباح؟

هل توقظ زوجها المنهك طول النهار من أحلامه الوردية؟

هل تستطيع اختراق الحواجز والوصول للمشفى؟

لو كان الأمر متعلقا بالوصول إلى المشفى، وبدون حواجز لكان الوضع

أفضل بكثير، زادت الآلام، كابدت، تحملت، ذهبت للصالة، حتى لا يحس

زوجها بها، هاجمتها موجة عاتية من مغص شديد تحملتها بصعوبة

دموعها انحدرت على وجنتيها توجهت إلى الله:

- اللهم استر وخفف الموجة القادمة

مرت دقائق هادئة، أخذت موجة الألم الثانية تشتد، صرخت صرخة عالية

رغم أنفها، لم تستطع من الألم كتمانها، هب زوجها من فراشه، بحث

عنها، وجدها تتأوه على كنبه في الصالة، تلاقت عيناها، أحست وكأنها

أذنبت قالت:

- أسفة يا صابر، لم أستطع التحمل، ولا كتم صوتي

- الله يسامحك

- القصة ليست في إيقاظك، بل في اجتياز الحواجز في هذا الوقت

- إنا نعمل اللي علينا والباقي على الله

اتصل بسيارة الإسعاف، أخبروه أنهم سيكونون عنده خلال ربع ساعة،
وعليه أن يجهز خلال هذه الفترة
جلس إلى جانب نسرين، وضع يده على كتفها، أمسك يدها بيده الأخرى،
قالت:

- أحس بالدفء والأمان وأنت بجانبني

- دقائق وتأتي سيارة الإسعاف إن شاء الله

- إن شاء الله

- تقومي بالسلامة إن شاء الله، وتأتينا "قدس" زي الوردية، وتملأ البيت
علينا بكاء وضحكا، كم أنا مشتاق إليها، كنت أود أن أمي وأمك على قيد
الحياة ليفرحا عليها

- يا ريت يا صابر، كانت أمي تتمنى دائما أن ترى المولود البكر لي

ينظر إلى ساعته، مضت الربع ساعة وزيادة، لم تأت سيارة الإسعاف،
يتصل مرة أخرى، يجيبه الطرف الآخر

- السيارة على الحاجز، والحاجز مغلق، وجارٍ عمل تنسيق

- كم يحتاج ذلك من وقت؟

- الله أعلم، وسنأتيك بمجرد الحصول على إذن الدخول

ينظر بعينين حائرتين إلى نسرين، وهولا يستطيع أن يقدم لها شيئا، تزداد
الآلام، تصرخ بشدة، تتأوه، تنن، يطوقها بذراعيه، ويقول:

- عما قليل تصل السيارة

- إن شاء الله

تمضي ساعات ونسرين تغوص في فترات إغماء، وصابر لا يدري ماذا يصنع، تداهمه فكرة أن ينادي جارته أم علي، إنها امرأة طيبة، وهي أقدر على التعامل في مثل هذه الحالات، خرج، طرق الباب، سمع صوت أم علي من الداخل وهي تتوجه نحو الباب:

- خير يا بني

- زوجتي جاءها المخاض وسيارة الإسعاف لم تأت وهي منذ ساعات على الحاجز

أسرعت أم علي وارتدت ثيابا لمرافقة الزوج، خرجت معه، دخلا الشقة، اتجها نحو الصالون حيث ترقد نسرين

كانت نسرين هادئة لا حراك فيها، أمسكت أم علي يدها، وضعت راحتها على صدرها، صرخت بأعلى صوتها:

- حسبي الله ونعم الوكيل على أولاد الحرام

نسرين فارقت الحياة

عند مطلع الفجر وصلت سيارة الإسعاف، حملوا جثة نسرين نحو

المستشفى، الجنين لا يزال حيا، أجروا عملية جراحية لها، خرجت "قدس" تصرخ بأعلى صوتها:

- أمّاه

عشيقتي في عيد العشاق

شمعون أحد جنود الاحتلال دخل حديثا إلى الخدمة قتل فلسطينيا بقذيفة دبابة فصلت القذيفة الرأس عن الجسد وحولت الجسد إلى أشلاء متناثرة في كل مكان، أسرع شمعون نحو القتيل الفلسطيني، نادى صديقه عزرا، قال له:

- أحضر الكاميرا وأعطني سيجارة

أشعل السيجارة، وضعها في فم القتيل، جلس إلى جانب الرأس المقطوع وقال لزميله عزرا:

- التقط لي صورة

- ولماذا؟

- كي أرسلها إلى عشيقتي في عيد العشاق

وأضاف التقرير إنه "لم يكن في مكان الانفجار سوى جثة الفلسطيني، ليس جثة تماما، بل أشلاء وروى أصدقاء "ي" والسعادة تغمرهم كيف لعبوا بالجثة مثل الليغو (لعبة تجميع مكعبات بلاستيكية للأطفال) وعندها تم إخراج الكاميرات" لالتقاط الصور.

وقالت الصحيفة: إن ضابطا آخر، "ج" برتبة عسكرية، "طلب أن يصوروه مع الرأس المقطوع وكان الأصدقاء يضحكون وتم وضع الرأس على عمود مثل الفزاعة ووضع أحدهم سيجارة في فمه" وقال "ي" إن "هذا المنظر أعجب جميع الجنود صحيفة يديعوت أحرونوت الإلكترونية، الجمعة، 2004/11/19

سلة الأحلام

عبير تحمل على كتفها سلة أحلامها وهي معلقة بعصا لوز مصقولة كتاك التي كان يحملها جدها لأمها، ويهش بها عليهم أحيانا مداعبا، وفي أحيان أخرى غاضبا، وهم حوله يقفزون ويلعبون ويضحكون وهو يأتي إليهم يملأ سلته بالعنب والتين والصبر وغيرها من فواكه فصل الصيف مرتديا ثوبه الأبيض الفضفاض وحطته والعقال المَقْصَّب والمطرز يسير في بهو البيت متبخترا كمالك جميل يزورنا في كل جمعة والفراشات الصغيرة تركض خلفه وتطوف حول زهوره المعطاءة تجمع رحاها المنساب شهدا فوق الروابي وفي أحضان أودية بين شقوق سلته المصنوعة من البوص المنمق والممرّد، والذي كان مزروعا على حافة بيارة طالما حدثنا عنها جدي ينظرون من بين شقوق السلة ليستعجلوا ماذا يهديهم جدهم اليوم ويصرخ آخرون منهم، بينما فرس جدهم تتمايل نحو البيت

- يا رب عنب اليوم

- أنا أحب التين، أريد تينا

- الصبر أزكى وأطيب

تقف الفرس أمام الباب وحدها، وسرجها المزركش والمنمق والملون يسحر العيون كما الألباب، والجد جالس عليه كملك على كرسي مملكته،

تتجه الفرس بهدوء نحو حلقة من حديد مثبتة في الجدار، ينزل الجد بسكينته المعهودة، يقول بصوته الجهوري:

- يا ساتر ويتحنح: السلام عليكم ورحمة الله وبركاته
فتسمعه كل الحارة ويتجمع الأطفال على نحنة الجد وسلامه، تمسك عبير رسن الفرس، تتباهى أمام قريناتها، تدخله في الحلقة المعدنية، يقول لها جدها:

- اربطيه يا عبير

- لا أعرف يا جدي

- تعالي أعلمك ويمسك يدها بيده ويقبلها ويحنو عليها، ويقول لها ضعي الرسن هاهنا، أخرجيه من هنا، لفيه، أدخله مرة أخرى، هاهي قد ربطته، تجري في بيتهم الصغير وتصرخ:

- لقد ربطت فرس جدي

ترجع إلى جدها، يضع يده في جيبه، يعطيها قرشا، فتفرح وتضحك ولا تسعها كل الأكوان، ويضع يده على رؤوس أطفال صغار تجمعوا، ويعطي كل واحد منهم قرشا فيفرون إلى أهليهم يغنون وينشدون فهذا هو يوم الجمعة الذي كانوا ينتظرون من ساعة إلى ساعة ومن يوم إلى يوم جدهم يوزع هداياه

تقول عبير لجدها:

- خليني أحمل معك السلة يا جدي.

وتمسكها من الناحية الأخرى وتسير إلى جانبه وكأنها ملكت كل الدنيا بيديها وهي تسير نحو أمها طارت الطفلة كعصفورة رقيقة غريقة وألقت بنفسها على ميناء فوق صدر أمها الحاني.

- أماء... انظري سلة جدي في يدي والذئب تلاحقني احميني يا أماء
- بسم الله الرحمن الرحيم، يا حي يا قيوم؟ وضمتها إلى صدرها

الذئب تنهش الطفلة وهي قابضة على صدر أمها، دمها يسيل، تلتصق
بصدر أمها، تشد عليها، تصرخ عبير صرخة مدوية
- الذئب يا أمي

يستيقظ كل من في البيت، تجري عبير نحو الغرفة التي يبني فيها جدها
تجد سلة البوص معلقة في السقف تتسلل إلى صدر جدها تأوي إلى
حضنه الدافئ يضمها إلى صدره ويقول:
- ماذا يا عبيرتي؟؟
- لقد سرقوا سلتي!!

في حضان أبيها

بينما كان القمر يسكب أنواره في بيوت المخيم فيتسرب إليها هادئاً من نوافذها وشقوق جدرانها ومما تكسر من اسبستها، ومن خلال أبوابها المصنوعة من صفيح مهترئ، فيملأها عذوبة وصفاءً، وذلك برغم كل ما في جنباتها من شقاء، ها هي حنان تحل واجباتها المدرسية، تحضر دروس الغد، ترتب كتبها ودفاترها وملابسها، تستعد لصبح مدرسي جميل، تصلي العشاء وأمها جماعة، أبوها يدخل البيت بعد أداء صلاة العشاء، تجري نحوه كعادتها كل ليلة منذ خروجه من السجن، وكعصفورة صغيرة تقبله، تتسلق على صدره الحاني، يحملها في قلبه وبين الضلوع، يطوف بها أنحاء البيت الصغير، يرسم على صفحات خديها أجمل اللوحات من أروع القبل، فكم كان مشتاقاً إليها وهو ينتقل في غياهب باستيلات بني صهيون، كم كانت تزوره في أحلامه ورؤاه، وتبادلته هي خرابيش الأطفال ورسوماتهم السريالية على وجنتيه، وقد غدا شعر ذقنه ينغرس في وجنتيها شوكا لذیذا، وكم كانت سعادتها وهي تداعب هذه الأشواك الجميلة براحتيها الورديتين حيث يزداد لون الورد فيهما نضرة وحسنا كلما داعبته أكثر.

من بعيد تأتي أصوات هادرة تقتحم البيت بلا استئذان لتكون ضيفا غير مرغوب فيه، تتسرب بين ثنايا فراش حنان وتتمترس على وسادتها

الجميلة، أصوات قبيحة تخلع النوم من العيون، وتطرّد الراحة من الأبدان، وتقتل الهدوء في الآذان، فلا يسمع الإنسان سوى حديد يُجر على الإسفلت جراً تتقلب حنان في فراشها، يهرب النوم من جسدها الرقيق، تنتشت أفكارها في غير مكان وغير زمان، كما الريح العاصفة تطارد حبات الرمل الذهبية في صحراء شاسعة.

- أهي دبابات الاحتلال قادمة لاعتقال والدها الذي لم يمض على خروجه من السجن سوى أسابيع قليلة؟؟ - أم هم هنا في نزهة ثقيلة كما يفعلون أحياناً في استعراض للحديد الأمريكي فوق ثرى مخيمنا؟

- أتقوم من فراشها لتدرس دروسها للتخلص من هذا الكابوس؟ لكن هيهات أن يصد هذه الأصوات شيء!!! تخشى إن هي أضاعت غرفتها أن يتسرب بعض ضوء إلى الخارج من عشرات الشقوق التي تملأ النافذة الخشبية، أو من فراغات كثيرة في سقف غدا كالغربال، فيرى الجنود الهائجون الضوء، فيتوجهون إلى البيت ويوسعون أهله ضرباً وعذاباً لا يطيقونه كما اعتادوا أن يفعلوا مع كثيرين من أهل المخيم،

تقترب الأصوات الكريهة المقيتة، أصوات عبرية غريبة عن هذه الأرض تملأ المكان وتلوث فضاءات المخيم، رائحة ننتنة تفوح من أجساد دخيلة، ضحيج بساطيرهم يكاد يخرق الأرض، يبدو أن بعضهم صار يمشي مترجلاً في أزقة المخيم، تقرأ كل ما تحفظه من كتاب الله، سمعت جدتها يوماً تقرأ آية الكرسي حينما تدلهم الخطوب، ها هي تقرأها، وتدعو: - يا رب أبعدهم عنا، أحبك يا أبي، اللهم احفظ أبي، - لم أشبع منه بعد يا رب، أمضى عشرة أعوام في السجن، من قبل أن أولد بأبام، إلهي إلهي وتهمر دموعها وتعرف أن أباه وأمها يسمعان كل ما يجري، تخجل أن

تذهب إلى حزن أبيها للتدثر في كنفه والذوبان بين ذراعيه في هذا الليل الطويل الطويل - إلهي احفظ أبي وأمي وجيراني، احفظنا كلنا يا رب من هؤلاء الأوغاد، ماذا يريدون منا؟؟

تتذكر المرات العديدة التي زارت فيها أباهما في السجن، كيف كانت تدخل أصابعها من الشبك الحديدي لزنزانتها، كيف قبّل أبوها أصابعها وعضها واحدة واحدة!! وكيف كانت تخرج إصبعها وتدخل الأخرى لتتهمر دموع أبيها على وجنتيه، وتداري أمها أمواجاً من دموعها المخزونة خلف ابتسامة ظاهرة من قلب مكبوت منحوت، وكيف بكت هي في زيارة لاحقة حينما وجدت أن الشبك الحديدي قد تم استبدال الزجاج مُصَفَّحاً به، قبّلت خد أبيها من وراء الزجاج ألف مرة وقبل أبوها خديها آلاف المرات، وكيف كانت دموعها تسيل على الزجاج من الداخل والخارج، ولا تزال تذكر يوم قالت له:

سنرى دموع من تسبق هذه المرة: دموعي أم دموعك؟؟ فيضحك أبوها بهذا الشقاء والتفتح الباكر، لكن وبعد ثوان تضيق كل الدنيا بأبيها، ويغمض جفنيه وتتلأشى شمس عينيه وراء غيوم من دمع حتى صرخ السجان بلكنته اللعينة الوقحة:

انتهى وقت الزيارة هنا يفتح أبوها عينيه، فترسل غيومهما الدمع من بحرهما مدراراً، هكذا تسقط الكلمات على سمعه وسمعها وسمع أمها كما الصاعقة، يفرقون بين قلوب يكبر فيها الحب ويتعاطم، وإن من وراء أسوارهم الخبيثة المجرمة توقظها من ذكرياتها المحزونة، هذه الأصوات اللعينة التي تقتحم هدوء الليل الجميل، وتفض سكونه القمري، هم يقتلون

الحب والنساءم والندى في الليل، حتى النجوم شرعت تبتعد عن هذا
المشهد فغارت بعيدا في السماء،
طرقٌ شديدٌ على الباب، تقفز حنان كالمجنونة من فراشها، تصرخ،
تخرج من باب غرفتها، جنود مدججون بالسلاح يملؤون ساحة البيت
الصغيرة، يقفون في كل جانب، يطلق أحدهم النار، تقع حنان على
الأرض خوفا ورعبا من زخات نار صالية، أبوها مصلوب على الجدار
ويده مرفوعتان إلى أعلى، تماما هو المشهد المروّع لعراقي مصلوب في
سجن "أبو غريب" تعود ذاكرتها الغضة الطرية لمشاهد مقرزة عُرضت
قبل أسابيع في فضائية "الجزيرة" تفضح تعذيب المجاهدين في العراق،
هو هو، نفس المشهد، هم هم ، لا يختلفون هنا وهناك المشهد واحد والقيود
واحد والسجان واحد والعذاب واحد.

عينها تتجهان نحو أبيها المزروع إلى الجدار كأشجار النخيل صامدا
صامتا، ها هم قد ربطوا يديه وقدميه وعنقه بالسلاسل، وضعوا كيسا
أسودا على رأسه، ربطوا الكيس حول عنقه، قفزت من مكانها، تعلقت
بعنق أبيها وطفقت تصرخ:

أبي أبي حبيبي إلى أين يأخذونك يا أبي اخرجوا اخرجوا من بيتنا أريد أن
أعيش في حضن أبي، وتزرع نفسها في حضنه كما الزيتون واللوز
والبرتقال في حضن الأرض بل في رحمها، وتتشبث بجسده وتغرس
جنورها في قلبه، تقبله من فوق الكيس كرية الرائحة وتبكي، وتختلط
دموعها بدموع أبيها المتسربة من الكيس النتن كروائح الطافحة،
يحاول أبوها أن يحرك يديه ليلمسها، يودعها، يطيب خاطرها ولكن يتقدم
نحوها جندي حاقدا، قد نرعت كل الرحمة من سويداء قلبه يشدها شدا...

تزداد هي تشبثا بأشجار أبيها، يشدها مرة أخرى بهمجية لا تخطر على قلب بشر... تتسمّر يداها ورجلاها حول جدار أبيها، تشبّك كفيها حول عنقه، وتأبى الفكاك من حضنه من حصنه من جسده من عنقه من قيده من قلبه، من الكيس الأسود الجاثم فوق رأس كانت بالأمس تقبله وتداعب شيبا يزينه كخيوط القمر وقد نما قبل الأوان، يأتي جندي آخر يساعده يقتلعان قلب أبيها من قلبها كما نجار يقتلع مسمارا، لطمت أحدهما على وجهه وخربشت الثاني بأظفارها،

يقذفان بها في ساح البيت مضرجة في دموعها، صرخت:

اخرجوا اخرجوا من بيتنا من أرضنا من بحرنا....

أريد أن أعيش في حضن أبي...

أبي اطمئن يا أبي سألحق بك غدا يا أبي.....

غسالة مونيكا

استيقظ الحمار من نومه، هز جسمه، انتفض، وقف، نظر حوله، مشى في الغابة الجميلة التي سكنها يوماً ما رأى مبنياً ضخماً يترأى له متضائلاً وهو يرمقه من مكان بعيد، قال في نفسه:

- لأذهبن وأرى ما ذاك الصرح الممرد

توجه على مكث، يتناول بقايا أعشاب من الأرض، ويمد عنقه إلى شجر طويل فيأكل بعض أوراقه والأغصان التي بها غضاضة وطراوة وما اشتهدت نفسه منها، فأسنانه قد تساقط بعضها لكبر سنه، وصل إلى المبنى، طرق الباب، رد حمار صغير:

- من الطارق؟

- جدك

- أوه جدي أهلاً وسهلاً وفتح له الباب ثم عانقه

- ماذا تصنع هنا؟

- أعمل موظفاً في غسالة مونيكا

- وما طبيعة عملك؟

- أغسل أدمغة الأسود المرشحة لتكون ملوكاً، تعال معي إلى الداخل هيا

نظر الجد فوجد أنية من حديد ونحاس وغسالات لم تكن على عهدہ،
الأنية مليئة بجماجم الأسود، وأخرى مليئة بأدمغتها، وثالثة مليئة بالماء
الساخن والصابون والمطهرات وآلات تعمل، سأل:

- وما هذا؟

- هذه أدمغة الأسود، غسلها لحساب إمبراطور الذئاب

- وكيف تغسلونها؟

- غسلها على سبع مراحل في سبع غسالات وذلك بعد إخراج الدماغ من

الجمجمة، نضعه في الغسالة الأولى ونسأله؟

- من أنت؟

- أسد بن أسد

- ونضعه في الثانية ونسأله

- ما أمنيته؟

- أن أكون ملكاً

- ونضعه في الثالثة ونسأله

- هل لك تاريخ وحضارة؟

- لا

- وفي الرابعة نسأله

- إذا رأيت الذئب يود قتل أخيك ماذا تصنع؟

- أحاصر أخى

- وفي الخامسة نسأله

- إذا رأيت الذئب يغتصب أختك ماذا تصنع؟

- أقيدها من قدميها ويديها وأقدمها له لقمة سائغة

- وفي السادسة نسأله
- إذا أمرك الذئب أمراً ماذا يكون ردك؟
- السمع والطاعة في كل الأحوال
- وفي السابعة نسأله
- ما نوع دماغك؟
- دماغ ذئب بعاطفة خنزير

ويُتَوَجَّحُ الأسدُ بعدها ملكاً تحت إمرة إمبراطور الذئب، قال الحمار الجد لحفيده:

- هذه قروود وليست أسود
- بل وربى إن هؤلاء حقاً من العبيد

وكان الجرذ يقرض الأسلاك الكهربائية في المبنى وما هي إلا لحظات حتى دب حريق هائل في أنحائه، هرب الحمار الجد بجلده واحترقت أسود وهربت أخرى خارج المبنى والجرذ ينظر إليهم جميعاً، هرولت بعض الأسود الناجية إليه وقال كبيرهم للجرذ:

- أرجوك أنقذني من هذه الحروق وسيكون دماغي دماغ جرذ
- ضحك الجرذ ومضى في طريقه

وشوشات الدموع

على أطراف المخيم حيث يلتقي العناد الفلسطيني بالكبرياء العالمي، هنالك حيث تسكن "خلود" على خط النار، وهي اليوم تقف على أعتاب ربيعها الثامن، فليس لها عش آخر ترقد فيه إذا ما طغى صوت الحديد والنار على أصوات البلابل والحساسين، ويتلاشى عزف الطيور وغناؤها بين زخات الطلقات الهائجة كثور فار، عشاها الأول صادرة "بلفور" من قبل أن تولد، ويصادره اليوم "أوباما" بكل صلف ودونما إحساس، لتسأل أمها وهي على فراش نومها:

لماذا ترسل أمريكا السلاح لإسرائيل؟؟

لماذا يقتلون عسافيرنا يا أماه؟؟ قُصي عليّ يا أماه قصة جدتي وقد شردوها من "بريرة" مشيا على الأقدام حتى لفظت أنفاسها الأخيرة في الطريق وقد بلغت من العمر سبعين خريفاً ونيف.

تبدأ أمها بالحكاية، وتطبّط على رأسها وصدورها حتى يجرها النوم إلى مملكته جراً، فتنام الطفلة العصفورة لتصحو على صبح جديد ليوم مدرسي جديد، ها هو العام الدراسي يكاد يقترب من منتصفه و "خلود" بعد لم تسدد رسوم مدرستها، تكابد في كل صباح مرتين:

الأولى وهي تنظر إلى عيني أمها التي ما إن تلتقي عيناها بعينيها حتى تصوب أمها عينيها نحو الأرض أو السماء، فكلتاهما قارئتان مجيدتان وتتقنان بتقنن لغة العيون الحزينة، وخلود تعلم علم اليقين أن ليس بمقدور أمها أن تدفع هذا القسط ومكابدتها الثانية وهي تدخل باب مدرستها التي تحبها، تحس أن كل العيون تلتهم جسدها الضعيف النحيل و مريولها القديم و شنطتها المتأكلة، تحس أن كل التلاميذ والتلميذات والمدرسين والمدرسات ينظرون إليها يقولون في أنفسهم:

- "هذه التي لم تسدد رسوم المدرسة"

كانت هذه الخواطر تؤرقها في كل آن وحين، كلما تحركت، جلست، وقفت، مشت، تنفست، كلما طلعت الشمس من خدرها أو داعب القمر شباك بيتهم الصغير في أطراف المخيم، كانت هذه الخواطر جيوشا تهاجمها وتتأوش دماغها الصغير كعقارب أو ثعابين تلدغها في جلدتها الرقيق دونما رحمة أو شفقة.

كان ذهابها إلى مدرستها كل صباح يمثل هاجسا عنيفا لها، تحب المدرسة والدراسة والعلم وحل الواجبات والنشاط المدرسي، وكم وقفت أمام الإذاعة الصباحية وهي تردد بصوتها الرخيم الأناشيد الوطنية والإسلامية، وتغني كل المدرسة خلفها ويتردد صدى صوتها في كل أنحاء المخيم، فتتخيل أن كل الدنيا تنشد معها أو وراءها، وكيف كانت تتمسح في نشيدها حتى تجد الدموع تتساب من عينيها على وجنتيها السمراوين كما جدول صغير يتمايل وسط ثرى فلسطيني القاني، وتزداد دموعها انهمارا وهي تنشد وينشد كل الكون معها:

لا تبكي يا أم الشهيد كل الشباب اولادكي

فتتذكر الشهداء أحمد ويوسف وعلي وإبراهيم وغيرهم وتتذكر أمهاتهم اللاتي كن يطلقن الزغاريد في جنبات المخيم مع كل شهيد يرتقي أجنحة الملائكة إلى السماء السابعة تحت العرش العظيم.

وبعد انتهائها من نشيد الصباح في ذلك اليوم تقف المعلمة وتعلن في طابور المدرسة:

- سيكون غدا الخميس آخر موعد لتسديد رسوم الدراسة، وكل من يتخلف فلن يسمح له بدخول المدرسة.

تقع هذه الكلمات كالصاعقة على سمع خلود، وتختلط دموعها، دموع الأناسيد التي تحبها ودموع الخوف من يوم الخميس القادم، تدخل فصلها وما زالت الدموع تتساقط على الخدين السمرابين اللذين تشوبهما حمرة الحزن والخجل واليتم المبكر:

- هل ستأتين إلى المدرسة غدا يا خلود؟؟
- هل ستفصلين من المدرسة وإخوتك وأخواتك؟؟
- هل سيبعث الله لك أحداً من أهل الخير فيدفع عنك وعن زميلاتك وأخواتك كما حدث قبل عام؟
- هل ستخبرين أمك بالموعد الأخير؟؟

آلاف من الأسئلة تجتاح عقلها الغض الصغير، فيغدو هذا الدماغ الطري مُشوّشاً كدماغ فلسطيني يحمل سبعين خريفاً من حياة عجوز عاشت كل نكبات الوطن.

أين أنت يا جدتي؟ ألوذ بحضنك الحنون، أنام على وسادة صدرك الرؤوم لماذا ماتت جدتي مبكراً؟؟ ومات أبي مبكراً؟؟ ليس لي سواك يا الله وتغرق في بحر دموعها.

تعود إلى بيتها وتقرر ألا تخبر أمها، فأمرها ليست في حاجة إلى إضافة أحزان فوق جبال أحزانها، ألا يكفي وفاة أبيها المفاجئة قبل عام؟ ألا يكفي أن إخوتها وأخواتها جميعاً لم يسددوا رسوم الدراسة بعد؟؟ ألا يكفي أن أختها الصغرى، والتي لم تكمل السنة الأولى من عمرها، تنام على بعض ماء وسكر بدلاً من حليب لا يجده، تحدث نفسها فتقول:

- سأذهب إلى المدرسة غداً، وسأخبر مديرة المدرسة أنني لا أستطيع دفع الرسوم، المديرية تحبني، كانت تقبلني بعد كل نشيدة انشدها، كنت أرى في عينها الدموع كما كل المدرسات و الطالبات، إنها لن تفصلني وأخواتي إنها تحبني،

تحمل حزنها ودموعها وشنطتها في الصباح وتستجمع كل شجاعتها لتخبر المديرية وتدعو في كل خطوة تخطوها أن يلين الله قلب مديرتها عليها، وبينما هي سائرة في طريقها تداعبها أشعة الشمس الصباحية وبقايا من الندى يتلألأ على قرميد بيوت المخيم، تنظر إليه وهو يلعب فيعطيها بريق أمل في هذه الحياة.

فجأة ينهمر الرصاص الغادر من كل الجهات، إنهم جنود الاحتلال يقتحمون المخيم، تهرب "خلود" نحو جدار قريب، كانت الرصاصات الغادرات في انتظارها هناك... ترتمي على الأرض، تحس ألمًا في ظهرها تضع يدها حيث الألم ترجع يدها مليئة بالدم واللحم تغيب خلود عن الوجود.

تستيقظ عند الصباح لتجد نفسها على سرير أبيض، أنابيب وأكياس ومحاليل بعضها يدخل إلى جسمها والبعض الآخر يخرج منه، لا تفهم شيئًا، يدها ثقيلة ولا تستطيع تحريكها، إنها محاطة بالجبس، ظهرها يكاد ينفجر من الألم، حولها مديرة المدرسة وبعض مدرساتها وبعض زميلاتهن تمد يدها اليسرى إلى مديرة المدرسة، تسلم عليها، تقبلها، تضع يدها على عنقها، تجذب المديرة نحوها برفق، توشوشها:

- أنا وإخوتي لا نستطيع تسديد الرسوم هل تستطيعين إعفاءنا؟!

الدبلة الشهيدة

هاهي أسماء اليوم تنهي ربيعها الثامن عشر، ويا لها من صدفه جميلة، إنه نفس اليوم الذي تستقبل فيه خبر نجاحها بتفوق في الثانوية العامة، تبوأَت المرتبة الأولى على مدرستها، اتصلت مديرة المدرسة بنفسها بزوجة عمها لتهنئتها، وهو البيت الذي تعيش في كنفه بعد استشهاد كل أفراد أسرتها، أبيها، أمها، أخيها وأختها الصغيرة، حينما قصفت دبابات الاحتلال منزلهم في البلدة القديمة بزعم وجود مقاومين بداخله.

عامان يمضيان من سني عمرها، وكأنهما آلاف السنين، كانت يومها في الأول الثانوي، حينما احتضنها عمها الذي يعمل أستاذا بكلية المجتمع، يدللها كابنته التي تصغرها بعام واحد، بل إنه يحايبها أحيانا أكثر من ابنته، وكانت كثيرا ما تخجل من نفسها، وكم همّت أن تصارح عمها بهذه الحقيقة، لكنها تخجل منه كثيرا برغم كونها تتظاهر أنها طبيعية، كانت تحس أحيانا أن عمها أكثر عطا عليها من أبيها، بل ويحاول تعويضها عن كل ما فقدته وهو يعلم في قرارة نفسه أنه لن يستطيع، وهي تذوب في بحر خجلها منه.

تتظر إلى دبلة الخطوبة التي ألبسها إياها ابن عمها أحمد قبل عامين، تتذكر كيف قبلها أبوها قبلتين واحتضنتها أمها بدموعها الغزيرة، أهداها والداها وإخوتها العديد من الهدايا الثمينة، وذلك قبل شهر من استشهادهم، أحمد أنهى دراسة الهندسة الإلكترونية بجامعة بيرزيت منذ شهر ونيف، هل يتزوجان؟ أم تكمل دراستها؟ أمران أحلاهما مر، ويا لها من خيارات صعبة.

تخرج أسماء ظهر يوم نجاحها إلى "البلد" لتقي بوعد قطعه على نفسها لأحمد أن تطعمه كنافاة نابلسية في أحد أشهر محلات المدينة وذلك يوم نجاحها، تلبس حجابا وجلبابا أهداهما إليها أحمد يوم نجاحها في الثاني الثانوي، ينظر إلى جلبابها، يبتسم لها، ترد الابتسامة بمثلها، يمسكها من يدها، يتوجهان إلى هناك، يقضيان أجمل الأوقات، يداعب بيده "دبلتها"، يغردان كأجمل الطيور، يفرحان وتزغرد قلوبهما بكل ألحان الفرح، ولا يغيب عنها أبوها وأمها وإخوتها، شريط طويل يمر أمامها، تحاول إخفاء ذلك كله عن أحمد، لا تريد أن تعكر صفو الجو بينهما، يصر أحمد أن يدفع، لكنها تقول له:

- أليس هذا وعدك أنك تأكل الحلو على حسابي يوم نجاحي.

- سامحيني

تدفع هي، تشتري صينية كنافاة نابلسية لتحلي بيت عمها بنجاحها، تحمل الصينية بيدها، يسيران في اتجاه البيت، يمسكان بأيدي بعضهما البعض

يقران المشي على الأقدام المسافة ليست طويلة، نصف ساعة فقط،
يتحدثان حول بيتهما السعيد، تقول له:
- أحمد ستكون أنت أبي وأمي وأخي وأختي وكل شيء في حياتي، أحبك
جميعاً يا أحمد
- وأنا أحبك يا أسماء

دبابات تجتاح المدينة تقتحم الهدوء إطلاق نار كثيف
نظر أحمد حوله صرخ... أسماء مضرجة في دمها... قذيفة دبابة بعثرتها
أشلاء، ذراع اليمنى طارت مع أشلاء أسماء، اجتمع المارة، لملموا
أشلاء أسماء، نقلوا أحمد إلى المستشفى، حملوا معهم ذراعه

سيدة عجوز تسكن في الطابق الثاني تسمع الانفجار، تفتح يهدوء باب
شرفتها وترى ويا لهول ما ترى على بلاط شرفتها، ذراع ممزقة
ومضرجة بالدماء تحرق فيها...
إنها يد شابة في مقتبل العمر بإصبعها دبلة خطوبة.

الطفلة العارية

فراس طير له جناحان من نور يحلق بهما في سماء طفولته، فراس يبحر بسعادة في يم من أزاهير ورياحين تتألق به في ربيع السابغ، يرجع من مدرسته يقفز كالأرنب يمنة ويسرة في بيته الصغير في المخيم. تبحث أمه عنه تارة تحت السرير... وتارة أخرى يختبئ منها في دولاب الملابس وثالثة يتوارى وراء باب هذه الغرفة أو تلك، ينتظر أن تبحث عنه أمه هنا أو هناك في لعبة يعشقها كل يوم، وحينما يطول انتظاره لها وهو في مخبئه السحيق يقلد أصوات القطط أو العصافير ، كأنما يستحث أمه للإسراع في البحث عن عصفورها.

تبدأ أمه رحلة البحث، فإذا ما أخطأت الطريق إليه، قفز من عشه المخبوء في دهاليز البيت وزواياه صارخا:
- واحد/صفر، أنا واحد وأنت يا ماما صفر
ويتسلق على كتفي أمه، وتسير به الأم إلى المطبخ وهو يهز قدميه على ظهرها ويقول:
- هل ترغبين في اللعب مرة أخرى؟؟

ولكنه، وليس كعادته كل يوم، يرجع اليوم من المدرسة مهموما محزوناً، تكاد دموعه تتناثر على خديه الورديتين ويصرخ وقد غدا وجهه شاحباً مصفراً:

- أماه هل سمعت؟؟ هل سمعت انفجارات الأمس، اليهود نسفوا بيت "سلوى" في المخيم الغربي، واحترقت كل ملابسها ودفاترها وكتبها وجاءت اليوم إلى المدرسة بلا شنطة وبملابس رقيقة وكانت أسنانها تصطك من البرد اصطكاكاً، وطلبت المعلمة منا أن نحضر لها ملابس وكتبا.

تحضن الأم طفلها، وتتمم آيات وأذكار، وتقبله وتحبس في عينيها دموعاً لو أتيج لها العنان لأغرقت الأرضَ ومن عليها وما عليها، تطبطب على صدره هنيئاً، تتحسس خصلات شعره أخرى، تضيق الدنيا في وجهها، تردد في صدرها وعلى شفيتها الحزینتين كلمات:

- يا رب هذا الكون أنت أعلم بدعوتي وبما في قلبي فاستجب لي يا الله

يصحو فراس على دموعات من عيني أمه يتساقطن على خده الرقراق ويقول:

- ما هي دعوتك التي لا يعلمها إلا الله يا أمي؟

تحقق في وجهه وقد ظننته نام، تتوجه وطفلها إلى صندوق به كل ملابسه، وتقول:

- خذ ما شئت من هذه الملابس لزميلتك "سلوى"

يتناول فراس "بلوزة" شتوية وبنطالا جديدين، وطاقية من صوف لم يلبسها بعد وملابس داخلية شتوية جديدة، وشمسية صغيرة أهداها إليه خاله قبل أيام، تكوي أمه الملابس، تضعها في حقيبة مدرسية صغيرة، يفرح فراس ويقول:

- كل هذا لـ"سلوى" يا أمي

- نعم يا ولدي، وتحاول أن تخفي عنه دموعا حبيسة في يناابيع مآقيها

في صباح اليوم التالي يحمل فراس على كتفه شنطتين، ويذهب إلى معلمته ويقول:

- هذه الشنطة وما فيها لـ"سلوى"

تضمه المعلمة إلى صدرها، وتحاول أن تبوسه، يحمز وجهه، يرفع كتفيه ليغطي خديه ويتلافى قبلتها، تبوس المعلمة جبينه الرقراق وتقول:

- أنا مثل أمك يا فراس

ترتدي "سلوى" الملابس الجديدة، وتبتسم ولا تسعها الدنيا وتقول لفراس:

- هل ستحضر لي قلما غدا يا فراس؟؟

يُخرج فراس من شنطته قلما ويقدمه لها

يعود فراس إلى بيته، ولا تزال كلمات سلوى ترن في أذنيه، ونزلت الكلمات كالصاعقة على سمع أمه ولم تستطع أن تحبس دموعها هذه المرة خلف أسوار عينيها:

- هل ستحضر لي قلما غدا يا فراس؟؟

تبكي الأم، ينظر إليها فراس ببراعة الزهور التي تزين ربيعته السابع
ويقول:

- ما هي دعوتك التي لا يعلمها إلا الله يا أمي؟

تستجمع الأم كل جرأتها وتجازف بكل انضباطها والتزامها وتقول:
- دعوتي يا فراس - وتهطل دموعها مدرارا على وجنتيها وترفع يديها
إلى السماء عاليا - يا رب هذا الكون من رأى عذابات هؤلاء الأطفال في
العراق وفلسطين وأفغانستان من حكام العرب والمسلمين وكل العالم وكان
قادرا أن يفعل لهم شيئا ولم يفعل، فلا تجعله يا رب يشم رائحة الجنة.

نظر فراس إليها وانحنى نحو قدميها يقبلهما، ويشم رائحتهما، ويمرغ
خديه فيهما، ويعضهما حيناً آخر، قالت له أمه:

- ماذا تصنع يا فراس؟

- أشم رائحة الجنة، قالت لنا المعلمة:

"الجنة تحت أقدام الأمهات".

هدية شارون

بينما كانت الشمس على وشك أن تتألق وتخرج من عشاها وترتدي تاجها الصباحي كانت "غدير" تنفض عن نفسها دفاء حزن جميل، تجهز نفسها لصبح جديد فهي اليوم تطرق باب ربيعها العاشر، تصلي لربها ركعتي الفجر، تعطيها أمها بضعة دراهم لتشتري فيلما لالتقاط صور عيد ميلادها، تضع بضع قطرات من قنينة عطر أهداها لها أخوها "أدهم" بمناسبة عيد ميلادها، تغطي خصلات شعرها وترتدي مريول المدرسة، تحمل حقيبتها الجديدة المزينة بالعلم الفلسطيني، ترسم قبلات عدة على وجوه إخوتها وأخواتها ثم تلتزم خدي أمها مرات عدة وهي لا تحتمل فراقهما.

تطرق زميلاتها الباب كعادتهن كل صباح، تخرج إليهن وقد علت وجهها ابتسامة تحسدها عليها غزالات وحساسين

- انتو اليوم معزومات على حفلة عيد ميلادي
- واحنا جهزنا لك أحدى هدية وخليناها مفاجأة
- استلقت كاميرا خالي "أبو طارق" وماما راح تحضر أحدى كعكة.

سارت الزهرات في طريقهن إلى المدرسة، يسرعن في المشي تارة، وبيطئن أخرى، وقطرات الندى تغسل جباههن الرقراقة كالنسيم، والشمس ترسل باكورة أشعتها الصباحية لتقبل أجمل الوجوه التي تتبختر على الأرض التي بارك الله فيها وحولها.

ينظرن إلى أبراج المراقبة التي يعتليها جنود الاحتلال وتشرف على المخيم، الجنود يطلقون النار في كل اتجاه وفي كل وقت، وأهل المخيم اعتادوا على أصوات الرصاص والقذائف والهدم والصراخ العبري الحاقق الدبابات تروح وتجيء وهي تطحن الأرض طحنا وتثير في مؤخرتها دخانا وغبارا يعمي العيون ويزكم الأنوف.

غدير تحلم في عيد ميلادها العاشر، ترقص في مشيتها وتغني، تغني معها وخلفها زميلاتها في تناغم وتناسق كما القمر والشمس والنجوم، تشاركهن التغريد طيور الصباح، ودجاجات المخيم التي أصبحت تبحث عن بضع حبات من شعير أو قمح أو ذرة تضعها لها الجدات والأمهات أمام البيوت المتهالكة، أو على أسطحها المعدنية أو الإسبستية حيث تطير الدجاجات وتتقاذف نحو حبات القمح المتناثرة.

هاهن العرائس الجميلات والحوريات في عمر الزهور على مشارف المدرسة، تقول لهن غدير:

- أوعاكن تروحوا وتتركوني بدي اشترى الفيلم من أستوديو القدس.

- ما فينا حدا يسترجي يروح من غيرك

إطلاق نار عنيف وشديد من جهة أبراج الاحتلال ... تهرب الزهراء كل في اتجاه، بعضهن إلى المدرسة

وبعضهن خلف الجدران... تجري غدير لكن الرصاص أسرع... تتدحرج غدير على الأرض، يسيل دمها كغدير على الأرض، يأتي "جيب" عسكري مسرعا نحو غدير، ينزل منه الضابط ويبيده سلاحه، ينظر إلى الطفلة المضرجة بدمها يرجع إلى الوراء قليلا يصوب سلاحه نحوها، يفرغ في جسدها النعناعي خزنة رشاشه كاملة يمتطي "الجيب" ويغادر. يعلن راديو "إسرائيل" أن طفلة قتلت في مخيم رفح وقد كانت تنوي تنفيذ عملية "انتحارية" حيث كانت تحمل على ظهرها شنطة متفجرات، وإلى هنا وينتهي الخبر.

وتبين أن الشنطة لا تحتوي إلا على كتب وأقلام ودفاتر و(ساندويتش)، وقرر جيش "إسرائيل" التحقيق مع القاتل، والذي ثبت أنه أطلق النار على غدير.

تمت محاكمته أمام محكمة عسكرية وقررت الحكم عليه بالسجن لمدة "شهر" مع وقف التنفيذ فكانت هدية "ملك إسرائيل" لغدير في عيد ميلادها.

* إلى طفلات من النعناع والريحان قتلن: غدير مخيم، إيمان الهمص، وإيمان حجو

الوحل الأسود

أوت العصافير إلى أوكارها، والأطفال إلى أحضان أمهاتها، وراجع أحمد دروسه وحل واجباته، طبع على خدي أمه قبلتين ورديتين أحس بطعمهما في قلبه وكأنه لم يقبلها أو تقبله قبل ذلك قط، وذهب إلى غرفة جدته لينام على صدرها الملائكي الوقور.

حمل في يده طبقا من ثمار التين الأخضر والأسود من شجرتي تين غرسهما جده قبل نيفٍ وخمسين عاما من عودين حملهما معه من "برير" في يده الأخرى إبريق الفخار المملوء بالماء وضعه على باب الغرفة من الخارج كي يبرد وتظهره قطرات الندى ليصبح ماؤه أحلى من العسل ... هكذا علمته الجدة الشامخة الراسخة.

كانت جدته قد أنهت لتوها صلاة العشاء، نادت عليه وجلس في حضنها

- حليت واجبك يا أحمد؟
- نعم يا جدتي
- أكملت حفظ سورة تبارك يا ولدي؟
- نعم يا جدتي
- سمعني إياها يا حبيبي

نهض أحمد من حضن جدته، توجه نحو القبلة وجلس كهيئة جلسته للصلاة وبدأ يقرأ بصوت ملائكي رخيم "تبارك الذي بيده الملك..".
أنهى تلاوة السورة، قبلته جدته، عاد إلى حضنها كما الفراشة إلى عشها، شرعت جدته تقرأ عليه أدعية خواتيم صلاتها لساعة أو بعض ساعة والتي تختمها دوماً "باسم الله أرقيك..".

ما إن انتهت من قراءتها حتى كان أحمد قد غرق في نومه، عدلت له وضعه، وضعت وسادته تحت رأسه هكذا ومنذ سنوات تعود أحمد أن ينام حتى أصبح يحفظ عن ظهر قلب كلام الجدات عن التين والزيتون والبرتقال والعنب.. عن الهجرة والدم والشهداء والحلم والأمل.. عن فلسطين والقدس والعرب وأمريكا وأوروبا، قاموس سياسي وكل مصطلحات السياسة أضحت خميرة في دماغه اليافع، هذا هو أحمد وهذه هي جدته.

تمسك عصاها بشموخها المعهود، ورسوخها وعظمتها، تتوجه إلى باب الغرفة وتغلقه، وتدور فراشها ليتواءم مع فراش أحمد، فيكون في حضنها وتضع يدها على رأسه وهي تقرأ ورد نومها، سكنت الدنيا وسكن الكون وأسلمت الجدة نفسها لبارئها "أسلمت نفسي إليك"

ضحيج يأتي من الجهة الغربية للمخيم حيث تجثم مغنصات غريبة فوق السواقي، دبابات وجرافات تتقدم مكبرات صوت تصرخ، وبلكنة غير "عربية":
- كله يطلع من البيت... شوية وراح ننسف البيت"

- ممنوع إخراج أي شيء من البيت
- خمسة دكيكة (دقيقة) وراح ننسف البيت

هدير دبابات يختلط بأصوات أجهزة الإرسال ومكبرات صوت لعينة ناطقة بعبرية دخيلة على الرمل والهواء والندى وضوء القمر.

صحا أبو أحمد من نومه، أخذ يدور في البيت كالمجنون، من غرفة إلى غرفة، أيقظ أولاده، ذهب بسرعة البرق إلى غرفة والدته، وجدها تمسك أحمد في يد وعصاها اللوزية في اليد الأخرى وتتمتم بكلمات ودعوات:

- يا حي يا قيوم أغثنا
- قصدنا بابك فلا تطردنا من رحابك
- يا رحمن يا رحيم

يزداد صراخ الجنود المدججين بالسلاح والحقد الأسود والرابضين في بطون دباباتهم وأعناق جرافاتهم

- واحد دكيكة وننسف البيت

لم يستطع أبو أحمد وأبناؤه حمل شيء معهم إلى خارج البيت المحاصر، خرجت الجدة العجوز تتوكأ على عصاها وعلى كتف "أحمد" وتقول:

-حسي الله ونعم الوكيل

تحركت الدبابات إلى الأمام وإلى الخلف قليلا،

ثلاث منهن هبطت بهن الأرض في آبار المجاري

نفق العراة

كانت السلحفاة تتبختر في شمس الصباح بين الحشائش والأعشاب الخضراء، وما زالت بقايا عروق من ندى لم تلتهمها الشمس بأشعتها الراقصة، تمتد العروق كخيوط فضية تطهر جسد السلحفاة من غبار علق بها بعد يوم عمل شاق، تتعمد المشي في أماكن تكثر بها درر الندى، تحتسي على مكث كأسا من عصير الندى أو كأسين، تصطاد بعض فراشات وهي في طريقها، تأكلها باطمئنان ولا تتسى أن تذكر اسم الله عليها

وقفت على باب نفق صغير مظلم مكفر، مدت رأسها إلى داخله متوجسة بعض الشيء، حدقت بعينيها يمنا ويسرة.. رأّت
ويا لهول ما رأّت
خمسون أسدا
عراة حفاة كيوم ولدتهم أمهاتهم
يجلسون على كراسي من حجارة بالية متهاكة تعيث بها ديدان الأرض
أيديهم مقيدة بسلاسل من حديد وراء ظهورهم وتمتد منها سلسلة تحيط
بالعنق
وأرجلهم مقيدة بسلاسل تتصل بالسلاسل العليا

وتفوح منهم رائحة عرقٍ كريهةٍ نتنة
كادت هذه الرائحة أن تخنق السلحفاة، ولكنها ولعبرةٍ
داست على البساط (الأحمر)
دخلت النفق
تفرست وجوههم
عرفتهم واحدا واحدا
رأت وجوههم يرهقها ذل لم تره على وجه مخلوق طيلة سني عمرها
الممتدة عقودا

- أستم أنتم ملوك هذه المملكة والممالك المحيطة؟؟
- نعم
- وكنتم ترفلون بأجمل الثياب وأزهى الألوان والطعام والشراب
والطيب؟
- نعم
- وماذا تصنعون هنا؟
- علينا أن نمكث في هذا النفق أربعين يوما على الحال التي تزين
- ولماذا؟
- نقدم صكوك الولاء لتباركنا الآلهة حتى نحافظ على كراسي المملكة!!!

الجزور

أرسلت الزيتون جذورها إلى أعماق الأرض ، أمدتها بكل ما تحتاج إليه
من غذاء وماء، وقالت لها:

إذا نقص عليك شيء فتدبري أمرك في الأعماق
هنالك الحديد والنحاس والكبريت والفسفور
ومليارات من الكائنات الدقيقة وغير الدقيقة
كلها طوع أمرك إذا ما نجحت في تسخيرها
واحدري من الأعداء هناك فهم كثر
لا تستعجلي المعركة معهم

ردت الجذور:

- وكيف نعمل في الظلام؟
- لا تكثرثي فالظلام يتلاشى أمام نور الصدق والعزيمة والإخلاص

غرست الجذور مخالباها وأظفارها في الأرض وبدأت تعمل بدأب

أغار الأعداء على أوراقها والأغصان، أكلت الأعداء معظم أوراقها
ومرّغت الباقي في التراب، كسرت الأغصان وصنعت منها تماثيل وآلهة
يعبدونها، صنعوا منها بيوتا وعرشا فيها يسكنون وينامون.

تثبثت الأغصان بالحياة، استمرت ترسل للجذور بعضا من ماء وبعضا
من طعام

أرسلت رسالة إليها:

- الحقيني أيتها الجذور يكاد العدا يقتلونني

لم ترد الجذور لانشغالها في البناء الجاد، أفاضت في العمل ليل نهار
ودونما هوادة أو تكاسل

حشدت حولها آلاف الأنواع من البكتيريا والكائنات الأخرى

صنعت من الحديد سيوفا

ومن النحاس موصلات للطاقة وأتية للحاجة

ومن الكبريت نارا

ومن الفوسفور قنبلة

خاضت معارك طاحنة ضد الأعداء في باطن الأرض

انتصرت عليها وأفنت جذورها

كانت الجذور على أحر من الجمر لخوض معركة السطح، تنتظر ساعة
الصفير

أرسلت فريق استكشاف إلى السطح

وجد الفريق أن الدنيا قد تغيرت

ومعالمها تبدلت ولم يعد على الأرض شيء مما كان

عاد الفريق إلى قيادة الجذور تحت الأرض

أعدت الجذور نفسها

وحصنت قواعدها

ووزعت مهام العمل

ما بين فوق السطح وتحتته

صعدت الجذور إلى السطح... يشع منها نور الزيت المبارك

احترق الأعداء وما عرشوا

وهربت الصعاليك كأنما فرت من قسورة

تتفست الباقيات من الأغصان جميل الهواء

وسألت:

- أين كنتِ أيتها الجذور والباطل في عرضي وكرامتي يعربد

- كنتِ أجتث الباطل من أساسه

الطاحونة

جلست جدتي "أم أحمد" كمليقة بثوبها الفلسطيني المطرز، تضع على رأسها قطعة من شاش أبيض تبدو وكأنها تاج يشع نورا فتملاً أزقة المخيم رونقا وبهاء، تحمل على كتفيها سبعين خريفاً أو يزيد قليلاً، يتجمع حولها أبناؤها وأحفادها الذين جاوز عددهم المائة، يقبلون يديها وخديها ويتبركون بالنور الذي يسطع من وجنتيها.

يأتي لها الأقارب والجيران بأبنائهم المحسودين والمرضى والخائفين فتقرأ عليهم "آية الكرسي" وبعض ما تحفظ من مآثورات، وتمرّجهم بزيت الزيتون المقروء عليه لثلاثة أيام عند طلوع الشمس وقبل الغروب فيشفى الأطفال بإذن الله.

تتربع أمام بيتها الثالث في مخيم جباليا على جاعد وثير من جلد خروف ذبحه ابنها البكر في آخر عيد أضحي، وإلى جانبها مصحفها الكبير وعصا لوز تتوكأ عليها أو تهش بها على أطفال الجيران وأحفاد قد يضايقونها أحياناً، تمسك اليد الخشبية للطاحونة المصنوعة من صخر "البلاد" - بتسكين الباء - كما يخلو لها التغني بها دوماً، حتى أصبحت الطاحونة جزءاً لا يتجزأ من حياتها وكأنها دمها الذي يجري في العروق

وهي تدور الطاحونة بيدها اليمنى ويدور أمام ناظريها شريط حياتها الطويل، من نكبة إلى نكبة ومن هجرة إلى هجرة ومن حزن إلى حزن، بحار من دموع وجبال من أحزان تمر أمامها مثل فيلم وثائقي.

تملاً قبضة يدها اليسرى عدسا أو قمحا وأحيانا بعضا من فول لتطحنها مقابل دريهمات تسد بها رمق الحياة

ما زالت الطاحونة على عهدا تعمل بكل أمانة وإخلاص، وها هو رمضان يأتي فيزداد ضغط العمل عليها، وقبيل الأذان بساعة أو بعض ساعة تترك يد الطاحونة لتتلو ما شاء الله لها من كتاب ربها، وتحسدها جاراتها اللاتي في عمرها، إنها الوحيدة بينهن التي تحسن القراءة.

ولا تنسى دعاءها الذي لا تمل من ترديده "اللهم اقبضني إليك شهيدة ... اللهم اقبضني وغبار الأرض على قدمي.."

يتحلق حولها صديفة المخيم يستمعون لحكاياها ويدورون حولها كما الرحي وأحيانا يدورون مع الرحي حتى يدوخ بعضهم ويفقد وعيه لحظات ملقيا جسده إلى جانبها، أو هكذا يدعون شاعرين بنشوة الدوخة كمن يمارس أحب الألعاب إلى نفسه، وتتقافز حولها عصفير المخيم تلتقط ما تتأثر من بقايا حبوب حول الطاحونة، تحدثهم فتصغي العصفير إليها كما الأطفال:

- لقد ورثت هذه الطاحونة عن جدتي

وكم ربّي قمحها وعدسها وفولها رجالا لا يضاهيهم رجال

لقد كان المجاهدون يأتون عند جدي في ساعات السحر

وكنت أسمع همساتهم وأتظاهر أنني لا أفهم شيئا منها

آه ه كم أكل فرحان السعدي من فريكة خرجت من هذه الرحي

وما زلت أذكر -كما أراكم- كيف كان والدي يحمل الخبز والجبن
والزيت

للمجاهدين في الأحرار

- وأين كانوا ينامون يا جدة؟؟

- كانوا لا ينامون، وإذا ناموا فَتَحَّتْ الأرض، سمعتم يتحدثون عن عز
الدين القسام، كم أحببت أن أراه وأن تكتحل عيناى بشعاع من نور يخرج
من لحيته الوضاعة،
يقاطعها طفل شقي:

- وهل كان معك بارودة يا جدتي؟

تتظر إليه وترميه ببقايا عدس في يدها

يتراكم الأطفال يجمعون حبيبات من عدس ويزردونها ازدرادا
تقول لهم:

- اتركوا للعصافير شيئاً

- كان بيتنا الأول في المجدل

- إذن أنت مجدلاوية

- ابتعد عني وإلا ضربتك بهذه العصا

وتمد يدها إلى عصا اللوز بجانبها.. يهرب الأشقياء وتستمر في حديثها

- وكان بيتنا الثاني في مخيم رفح بعد الهجرة

- ولماذا جئت إلى جباليا يا جدتي؟

- لقد هدموا بيتنا في رفح قبل أيام، حسبي الله ونعم الوكيل... وتحبس
في عينيها دموعا تحاول إخفاءها إلا أن عينيها تخونانها وتسكبان الدمع
مدرارا

تتجمع العصفير وتلتقط حبوبا من حولها، ويا لها من عصفير جريئة،
تقترب منها، وتلتقط بعضا من الحب المطحون

- لماذا يا جدتي تضعين العدس بنيا ويخرج من الطاحونة برتقاليا؟

- الطاحونة تلونه أيها الشقي

- وهل بداخلها علبة ألوان؟

- نعم

- هل هناك ألوان أخرى غير البرتقالي؟

- نعم هناك اللون الأصفر والأبيض والبنّي لتلوين الفول والقمح والشعير،
وهي ألوان "الفريكة" و"البرغل" و...

- هل هذه ألوان خشب أم ماء؟؟

تتناول كأسا من الألومونيوم إلى جانبها وتسكب ما به من ماء على الشقي
الذي لا يكف عن الأسئلة، يهرب وقد ابتلت ملابسه بالماء، يجري وراءه
الأطفال وينشدون

"شايقين أحمد ما له... عامل على حاله"

دار الأطفال دورتهم، وعادوا فوجدوا جدتهم منحنية على الطاحونة كأنما
هي تقبلها، نصف وجهها يستلقي على الطاحونة، والنصف الآخر يستلقي
على مصحفها ذي الأوراق الصفراء، نادوا عليها، صرخوا، الجدة لا
تتحرك، تقبل المصحف وكذا الطاحونة المصنوعة من حجر "البلاد"
نظروا...

بقعتان من نور دمها تزركشان كتاب ربها، وبقعة ثالثة ترسم خطأ
متعرجا على الطاحونة... يمشي ببطء ليتسلل إلى عدسها المطحون
ورصاصة غادرة اخترقت رأسا يحمل سبعين خريفا من الحزن

دم العرائس

في وادي الفراش "المقدس"، تعيش آلاف من الفراشات، في مودة ومحبة وصفاء ونقاء يخرجن معا للعمل في الصباح عند أذان الندى بصوته الرخيم، تعكس صدها شقشقة الطيور العاشقات نور السماء، ويعدن قافلات في المساء، وقد جمعن من الطعام ما يكفيهن وصغارهن والمرضى والمقعدين، يصلين العشاء في مسجدهن فوق شجرة "الجميز"، ويقمن الليل في مصلى هادئ وجميل أنشأته فراشة عجوز على قمة "زيتونة" لها من العمر مائة عام أو يزيد، وذلك قبيل ذهابها إلى مكة المكرمة لأداء "العمرة" في شهر رمضان، حيث ماتت هناك ودفنت بجوار الصحابة الكرام -رضوان الله عليهم جميعا-

اجتمعت الذئاب في عش الدبابير، وقررت التوقف عن أكل لحم الشياه وشرب دمها وذلك لأسباب ثلاثة:-
أولها: أنها سئمت هذا النوع من اللحم والدم.
وثانيها: أنها ترغب في التغيير والخروج من رتابة الحياة.
وثالثها: رغبتها في مد حدود إمبراطوريتها إلى ما وراء البحار.

تتأقشت الذئاب طويلا في البدائل، قال ذئب منهم:

- ما رأيكم في شرب دماء العصافير؟
- لقد جربته يوما ولم استسغه
- إذن دماء النحل؟
- لقد حاولت يوما، لكن نحلة لعينة لسعتني في جفني الأيمن، وما زلت أعاني من حَوْلِ فيها
- ما رأيكم إذن في دم الفراشات الصغيرة؟
- آه ه إنه من أذ أنواع الشراب، لقد دعاني "ثعبان" يوما على حفلة كان فيها هذا الدم هو المشروب الرئيسي، ما زال طعمه الرائع في فمي
- إذن علينا أن نذهب إلى وادي الفراش، ونقف أمام المدرسة الابتدائية ونحاصرها ونسطاد الفراشات الصغيرة لذيدة الطعم

أعلن زعيم الذئاب "المنتخب" ديمقراطيا، التعبئة العامة بين "جنوده"، واتجهت الطائرات والحاملات والدبابات والجرافات لتحاصر مدرسة الفراشات الصغيرة، اصطادوا العشرات منها، قتلوها بدم "بارد"، وضعوها في ثلاثيات للحفظ، أحرقوا المدرسة عن بكرة أبيها، أصبحت الأرض قطعة من فحم أسود، احترقت الزهور والورود التي كانت تزين المدرسة كلوحة رائعة يأتي إليها السياح من كل حدب وصوب.

حذقت الفراشات الطائرة في السماء في عيون الذئاب الماكرة، حملت صغارها في أحضانها، ومرضاها في سلال من البوص على أكتافها، و"مرجونة" الخبز معلقة في جيدها... لحقت بها طائرات "الذئاب" اللعينة قتلت وأحرقت منها عددا غير قليل.

أفلتت بعض الفراشات من بطش "العدو" وناره السوداء الحاقدة، اختبأت في أنفاق تحت الأرض بين "ظلمة الدنيا" و"نور إيمانها" بعدالة قضيتها وقداستها وطفقت في لملمة صفوفها وجراحاتها صنعت صواريخ بدائية جدا من بقايا المعدن والورق والكرتون، أجرت عليها التجارب نجحت في إطلاق بعضها على الذئاب في عش الدبابير، احترق العش وملاً دخانه النتن صفحة السماء، هربت الذئاب والدبابير إلى عالم المجهول لا تلوِي على شيء.

عادت الفراشات إلى مسقط الرأس في وادي الفراش "المقدس" وهي تتشد
نشيد العودة والوعد الموعد
وتزرع "سورة الإسراء" في رحم الورود وتنمو النعناعات بواد "غير ذي
زرع" من جديد.

* إلى الطفلات البرينات (إيمان الهمص، وتغريد مخيمر وغيرهما) واللاتي قتلن غدرا
وهن في طريقهن إلى مدارسهن أو على مقاعد الدراسة

وردة حمراء

رفعت عينيها نحو الشمس وألقت إليها بوردة حمراء، طارت الوردة في
عنان السماء على جناحين صنعتهما من طين الأرض المعجون بدم أختها
التي استشهدت بالأمس وهي تجلس على مقعدها الدراسي، وصرخت
بصوت سمعته كل الدنيا:

- أيتها الشمس أرسلني لي مع هذه الوردة حزمة نور وحزمة نار
- انتظري قليلا

سارت في اتجاه مقبرة الشهداء

وضعت الوردة الثانية على قبر أختها، جلست بقرب القبر تقرأ سورة
"يس" على روح أختها التي لم يزل دمها الطاهر رطبا نديا يببل ثرى
الأرض بمسك لم يشم أهل المخيم أطيب منه قط، وتدافع الجميع كل يود
أن يحتفظ بحبة رمل معبقة من دم "إيمان"، بينما هي كذلك تسرح في
سماء الدم الندي المتناثر فوق جدران "إيمان" التي تداعبها نسيمات بحر
يشهق ويزفر بغضب لم يشهد أهل المخيم من ذي قبل مثله ما زالت تقرأ
بدموعها آيات "يس"

حطت أمامها الوردة التي أرسلتها قبيل قليل للشمس، تحمل على جناح
نورا، وعلى جناحها الآخر حزمة نار، أمسكت الوردة من جناحها الأيمن
فصارت الوردة نصفين، قبلت الوردة الطفلة قبلتين على الجبين، فاح

عبير من الوردة ومن القبر، انطلقت شعلة نار نحو الموقع العسكري على حدود "رفح"، الذي اغتيلت منه "إيمان"، انطلقت من قبر أختها شعلة أخرى، صرخت "الله أكبر"

* إيمان الهمص التي قتلت بدم بارد، وأفرغ في جسدها النعناعي بعد موتها مخزن رشاش كامل في رفح، وهي تبلغ من العمر عشر سنوات، ويرأت المحكمة العسكرية الصهيونية الضابط الذي قتلها.

الغار

في غابة جميلة، يقطعها نهر طويل يتمايل بين أشجارها، تنام الغزالات البريئات ليلهن، وبالنهار يسرحن بين الورود والرياحين، ويجمعن الطعام ويرضعن الأبناء والأحفاد، شيدت الغزالات مسجدا مشيدا وعامرا، كن يؤدين فيه الصلوات كلها شكرا لله وتقربا إليه كن يجتمعن في هذا المسجد لقضاء حوائجهن وحل مشاكلهن، وكانت "حكيمتهن" تتفقدهن دوما وتزورهن في أوقات المرض والمناسبات الاجتماعية، وكانت الغزالات كلها، تحترم "الحكيمة" ويدينون لها بالولاء والطاعة.

صار مجتمع الغزالات نموذجا رائعا للمجتمعات المجاورة من حمير وذئاب وطيور وغيرها وأصبح هذا المجتمع "بحكيمته" يمد يد العون إلى الجيران ويقدم لهم كل مساعدة ممكنة.

اغتاظ مجتمع الحمير والذئاب من مجتمع "الغزلان" وحكيمته، ورأوا أن الحكيمة قد أصبحت تسيطر على الغابة كلها... جلس الحمير والذئاب معا في مؤتمر "قمة" واتخذوا عدة قرارات كان أهمها "تفريق مجتمع الغزلان" والقضاء عليه

قال كبير الحمير: مهمتي أن أرسل عشرة حمير من عندي ليعيشوا في مراعي الغزلان ويبولوا في "مسجدهم"

رد كبير الذئاب قائلًا: وأنا أرسل عشرة من الذئاب في الصباح فيأكلوا
الغزالات الصغيرة ، بينما تكون الغزالات الكبيرة خارجة في المراعي
رد عليه كبير الحمير: وأنا لي أصدقاء من الغزلان سوف أدعوهم للتمرد
على "الحكيمة" وهكذا نطبق مبدأ "فرق تسد"
في الصباح كانت الغزلان الخائنة تقود قطعان الحمير والذئاب ويعيئون
فسادا في غابة الغزلان وبيوتهم ومسجدهم، كانت "الحكيمة" كعادتها
تتجول في الغابة مع الغزالات الرضيعة، ورأت القتل والتدمير، حاولت
الدفاع عن الغزالات الصغيرة، استماتت في القتال، أحاطت بها الذئاب من
كل جانب، غرزت مخالبيها وأنيابها في جسد "الحكيمة"
صرخت الغزالات الصغيرة في وجه الغزالات الخائنة:
- عارٌ عليكن.

لوغاريتم النور والبعد العاشر

سأل "الخوارزمي" الشمس يوما: كم من الأبعاد لك؟

قالت: ثلاثة كما هي كل الأجسام في "الفراغ"،

قال: لكني أرى هنا عشرة أبعاد،

قالت: هذه هي أبعاد "الوهم"،

قال: وما علاج الوهم؟

قالت: الاستئصال،

قال: وأي بعد هذا الذي نحن فيه؟

قالت: البعد الثالث للوغاريتم العاشر (10)

قال الخوارزمي للشمس: لكن الوهم لا أبعاد له، فهو جسم هلامي لا يُعرف له "كوع من بوع"، ولا تصلح لقياسه كل طرق ووحدات القياس الدولية المعروفة، والتي أقرتها اللجان العلمية بهيئة الأمم ومنظمة اليونسكو، حتى اكتشافات "أحمد زويل" لا يمكنها قياس أبعاد "الوهم".

قالت الشمس: يعتمد ذلك على الزمان والمكان والناس، والناس هم الذين يضعون حدود "الوهم"، أو يلغونه من حياتهم تماما حتى لا يعود له من وجود بينهم، تذكر أيها العالم الفذ أيام فتوحاتكم، هل كان لدى قادتكم وأمتكم "أوهام"؟

رد الخوارزمي: أدركت الآن أيتها الشمس "جبال الأوهام" التي تعيش فيها أمتي اليوم!!

وقف الخوارزمي على باب مدينة "بيت المقدس" وسلم على زيتونة هناك.

قالت له الزيتونة: اشنقت لأيامك، تصور أنني احتاج الآن لتصريح حتى

أؤدي صلاة الفجر في الحرم!!

تهتد الخوارزمي وقال: وأين سيفكم؟

قالت: في جرابه يأكله الصدأ!!

قال الخوارزمي: رافقيني إذن، أمسكها من يدها، قاس طولها وعرضها

وارتفاعها وجذورها وزواياها، أجرى عمليات رياضية معقدة...

نظر إليها.

قال: هل تستطيعين رؤيتي الآن؟؟

نظرت إليه. قالت: لا أراك، ويحي، هل أُصِيتُ بالعمى؟؟

قال: على رسلك سيدتي، لقد أصبح جسمك الآن من نور.

سارا معاً، اخترقا عشرات الحواجز، وصلا إلى ساحة الأقصى وصليا

الفجر خلف صلاح الدين الذي كان يقوم الليل هناك، وصل الخوارزمي

إلى "قاهرة المعز" ممتطيا اللوغاريتم العاشر، حط في مسجد "الحسين"،

صلى ركعتين، سار على قدميه إلى الجامع الأزهر، صلى الفجر وسأل

عن "القطز"

قالوا له لقد ذهب للحج هذا العام

نظر إليهم، رمقهم وفي عينيه ألف سؤال وسؤال

قالوا بإمكانك أن تقابل "عمرو موسى" أمين العرب اليوم

توجه إلى "جامعة الدول"

قالوا له: ذهب إلى "أمريكا" لبحث قضية "الشرق الأوسط".

وردة وحجر

تعودت أن يرجع إليها ابنها محمد كل يوم بوردة حمراء من المدرسة تعطيتها له معلمته مكافأة على تفوقه، فصارت الأم تنتظر هذه الوردة على أحر من الجمر، تقف على باب المنزل ساعة أو بعض ساعة قبيل موعد عودته، تتخليله وهو يقبل يديها ثم يتسلق على صدرها ويقبل خديها وجبينها، ثم يخرج وردة حمراء من حقيبتة، يضعها كالتاج على جبينها، وقد علمته أن يبثتها في شعرها حتى تبقى بقية النهار تزين خصلات شعرها المسترسلة على جبينها، ويمكث بعد ذلك وقتاً غير قليل متسلقا صدرها ويمازحها قائلاً:

- أرضعيني من حليب صدرك

- كفاك شقاوة

- ما أجمل الشقاوة على صدرك وفي حضنك يا أماء

- لقد كبرت يا ولدي، عيب، بلاش يشوفك الجيران

- قد ما أكبر راح أبقى طفلاً صغيراً بين يديك

تضحك، وتسير به في بهو البيت وهولاً يزال متعلقاً بصدرها والوردة

تزين جبينها، تقبله قبلتين، ينساب بهدوء عن صدرها

- ماذا فعلت يا ولدي في المدرسة اليوم؟

- الأول في الحساب والعربي والإنجليزي ودخلت هدفين في حصة الرياضة، ورسمت في حصة الرسم مدفعاً سقطت به طائرة الأباتشي اللي بتغتال الشهدا يامه

ويخرج كتبه ودفاتره من حقيبته، لتراها أمه واحدا واحدا تقبله مرات ومرات وهي تنتظر فيها، تمسح دموع فرحتها عليه، وتقول:

- يا الله اكبر يا محمد علشان نفرح فيك أنا وأبوك وإخوتك وأعمامك وأخوالك والحارة كلها

- ما هو أنا كبير يامه، أنا عمري عشر سنين

- لسه بدنا اياك تكبر كمان

وبينما هي تسرح في شقاوة ابنها، وتنتظره على باب البيت، سمعت ضجيجا وصخبا يقترب منها، واقترب منها أطفال صغار في سن محمد ومن مدرسته، وقال أحدهم:

- محمد استشهد يامه اليهود طخوه في المظاهرة ونقله الإسعاف للمستشفى

- اللهم اجعله خير يا رب

أسرعت الأم إلى المستشفى، والذي يبعد عن بيتها خطوات قليلة، وهي لا تدري ما الذي يجري حولها، وما الذي سمعته، وصلت المستشفى، كان هناك شهداء وجرحى وسيارات إسعاف وأطباء وممرضون ومواطنون، سألت:

- من الشهداء؟

- طفل في العاشرة

- أين هو؟

- من أنت ؟
- ربما أكون أمه!! لا أدري!!
قادها طبيب إلى حيث الطفل الشهيد، نظرت إليه!! صرخت
- محمد ابني حبيبي روجي
وانهالت عليه، تقبله وعيناها تنرفان الدموع، أغمي عليها أجرى الطبيب
ما يلزم لها، لتعود إلى وعيها،
صحت، وجدت حقيبة محمد إلى جانبها، فتحت الحقيبة، وجدت الوردة
الحمراء بين دفاتره، أخذتها... قبّلتها،
ذهبت إلى حيث جثمان الابن الشهيد، قبلت وجنتيه وجبينه، وضعت
الوردة على جبينه،
أمسكت يده اليمنى لتقبلها، وجدته يشد على حجر بكفه.

نور وظلام والبعد العاشر

(1) هجوم النور

صحت من نسيمات نومها، نظرت حولها، ظلام دامس يملأ الأرجاء، أحست بوحشة الوحدة، أغمضت عينيها باحثة عن بقايا نوم في سلة أحلامها الوردية، حاولت التزلج على جليد النعاس، لم تستطع الوصول إلى الهدف، قفزت من سريرها الغاضب، فتحت النافذة، وجدت حمامة صغيرة تبني عشاً لها من أغصان الزيتون، هجم النور من النافذة ماراً بعش الحمامة، وبدد الظلام، تنفست وبشراهة نسائم الحمام وهي تبحث عن البعد العاشر.

(2) حبة رمل

مشت على شاطئ البحر الذهبي، أوقفتها موجة ذات عيين زرقاوين وسألتها: إلى أين؟؟ قالت: في أرض الله، أبحث عن رملة ضاعت!! قالت الموجة وهي ترسم على شفيتها ابتسامة: وكل هذا الرمل لا يكفيك!! لقد أمضيت آلاف السنين وأنا أجمعه، قالت: ابحث عن رملة لها قبة ذهبية، قالت الموجة وهي ترش رذاذها المعطر على الشاطئ: رملتك تلك حملها "مروان" إلى الجبل وهي تبحث عن البعد التاسع.

(3) نفظ

استيقظت البرتقالة من نومها في آذار، بحثت عن جارتها الزيتوننة، لم تجدها، صرخت بأعلى صوتها: أين جارتني؟؟ ردت عليها العصافير الحزينة: استشهدت قبل أيام، حيث اجتثتها جرافتان من صناعة أمريكية تعملان بنفظ عربي على امتداد البعد الثامن.

(4) دوده من عوده

مر ذئب بالأرض العربية، وجد الفقر والجوع والمرض والقتل وأمريكا يسيطرون على كل شبر فيها، نزلت على خده دمعتان، قال: ألا يعرفون الدواء؟ ردت عليه غمامة في السماء: بل يعرفون، قال الذئب ولماذا يسكتون؟ قال البحر: "دوده من عوده" أيها الذئب وابتحث عن الباقي في البعد السابع.

(5) سهيل السيف

وقف "خالد" على نهر اليرموك، ولسيفه سهيل نحو الجنوب، سأل خالد السيف: ما هذا؟؟ قال: سيأتي بعدكم قوم يشترون السيوف بالذهب، ويحملونها كالخشب، حتى يصيبها العطب، بدون عمل ولا تعب، قال خالد وأين هؤلاء؟ قال السيف: في البعد السادس.

(6) زوائد دودية

سألت الزيتون الجريحة أمها: أين أخواتي، أرى في شجرة العائلة أن لي
ثنتين وعشرين أختا، قالت لها الأم: هذه زوائد دودية ونبحت عن طيب
من كوكب آخر يستأصل هذه الزوائد ليعود الكل إلى الأصل في البعد
الخامس.

(7) من يمسح الدموع

قالت درر الندى وهي ترش ثوب شجرة الزيتون بعطرها: أرى بوجهك
الحريري دموعا، هل لي أن أمسحها؟؟
قالت الزيتون: أنت تمسحين عني التعب، أما الدموع فأنا في انتظار
(عمر وصلاح) وقد قيل لي أنهما قادمان إليّ في البعد الرابع.

أجسام غريبة

حملت الأرضُ عكازها المصنوع من خشب اللوز الناعم وهي تضع يدها على رأسها، سارت في شارع النجوم متجهة إلى مستشفى في زُحُل يُقال إنَّ به طبيباً نابغاً

قالت للطبيب: أشكو من نزيف وصداع

- ما اسمك؟

- أرض بنت كون

- كم عمرك؟

- خمسة آلاف مليون سنة

- هل لديك شهادة ميلاد؟

- نعم، ها هي وأخرجت من جيبها بضع ذرات يورانيوم مشع

- مم تشكين؟

- صداع ونزيف حاد في الصدر

- أوه، في المنطقة الخطرة من جسمك

- نعم سيدي، أحس بالنزيف في الرئة اليمنى، التي تسمى "الجزيرة" والرئة اليسرى، التي تسمى "الكنانة" وقد أجريت لي عدة عمليات في الشريان "الأحمر" بينهما، منذ أكثر من مائة سنة وتم وصلي بالقلب "المتوسط" بواسطة "قناة" حصل انسداد بها مرتين في الخمسينيات

والستينيات وتم تسليكه في شهر رمضان في السبعينيات حيث داومت على الصيام والصلاة والتهجد وقراءة القرآن، وتحسن الوضع، لكنه وفي التسعينيات بدأ يسوء والآن أعاني من صداع شديد ونزيف حاد - تحتاجين إلى صورة أشعة وبإمكاننا أن نجريها الآن نامت الأرض على السرير، أخذت لها صورة الأشعة في دقائق، فحص الطبيب الصورة، تأملها جيدا، قال:

- سيدتي، لديك مشكلة خطيرة، هناك أجسام غريبة في الرئتين والشرابين والعجيب أن هذه الأجسام نوعان: نوع محلي ونوع خارجي - وما العلاج سيدي؟

- عدة عمليات معقدة لاستخراج الأجسام الغريبة!!!!

ريم

ريم أمٌ كسائر الأمهات
ولأنها تقاوم
أفرغوا في روحها ألف رصاصة ورصاصة
ظنوها ماتت
نامت
حلمت والشمس تغازل خصلات الندى على غدير وجهها المضيء
نظرت حولها
وجدت الينابيع والجداول تحرسها وتمنع الوحوش الضارية والذباب من
الوصول إليها
وجريد النخيل يحرك النسومات حولها ويرسم حدود الظل الممدود
والغزالات يرتدين العلم الحبيب وينشدن نشيد العودة
والعصافير يلبسن أثواب الشهداء الصغار ويعزفون موسيقى الوطن
والفراشات يحملن أكواب الرحيق الملائكي ويسقين أطفالا صغارا
رفعت رأسها
جلست على سرير من ريحان
تقدمت نحوها طفلة كأجمل ما تكون الورود
تحمل في يدها تاجا مطرزا بقبة الصخرة

انحنى الطفلة، قبالت يديها ووجنتيها وجبينها
وضعت التاج على رأسها
سألتها: من أنت؟؟
أنا ابنتك يا أماء كان عمري شهوراً لما نمت!!!
ضمتها إلى صدرها
رضعت الطفلة بقية حليب تلجي من الصدر الشهيد!!!!
استيقظت الأم من نومها
كانت الوحوش الضارية والذباب قد هربت من روائح العطور والزهور
الفواحة من ثرى يضم مسك الشهداء
فهي-الوحوش- لا تعيش إلا في النتن

* إلى الأم الاستشهادية ريم الرياشي التي تركت وراءها طفلة رضية.

زغردتان

تعودت أن تأوي إلى فراشها كل ليلة وهي تحمل ألف دمعة في قلبها ومن عينيها تنهمر، تتذكر بيتها القديم الذي دمره المغتصبون، كيف أخذت تجمع بقايا الأفلام والكتب والدفاتر، بعض الملابس المدرسية القديمة، وأدوات المطبخ من بين الركام المتبقي بعد نسف البيت، كيف جاء الجيران والأقارب يقدمون لها المساعدة، فهذا يقدم فراشا، وذاك يقدم غطاء، والثالث طعاما، والرابع بعض أنية المطبخ.

تتذكر ابنها "مجاهد" الشهيد الذي مضى إلى عليين في منتصف شهر رمضان، وها هي الليلة منتصف شعبان، عشرات الذكريات تتناوش رأسها المنقل بهموم الوطن، أمهات الشهداء، الأرامل، اليتامى من الأطفال كالورود، قتلهم اليهود دونما رحمة أو شفقة، الرصاص، صوت الدبابات تقتحم سكون الليل، وتدمر الأحلام الهادئة الرائعة في قلوب العاشقين، حتى الأحلام التعيسة، يدمرها أزيز الرصاص و الانفجارات توقظ الأطفال من نومهم، لكن النوم إلى عينيها لا يأتي، تحس بروحها أن هناك شيئا سيحدث، تتذكر رؤياها قبل أيام، و"مجاهد" يمسك بيد أخيه "أحمد" ويبتعدان عن البيت، تحاول نسيان الرؤيا، لكنها-الرؤيا- تهاجمها

في كل حناياها وشوارعها وتفصيلها، بل وتسري في جسده سريان الدم
في العروق.

تحلم يقظة في زغرودها التي أطلقتها مدوية في عنان السماء، يوم جاءها
البشير يزف إليها نبأ استشهاد ابنها البكر "مجاهد" في عملية بطولية ضد
المغتصبين

كيف أطلقت زغرودها الطويلة تلك؟؟

تحمد الله أن ألهمها ذلك

تتذكر "مجاهد" وهو يملأ عليها البيت حيوية وشقاوة وهو طفل وهو شاب
يأتي لها بهداياه الحلوة

يغني مع مسجله الصغير كصبي صغير ويردد أحمد وأخواته الصغيرات
وراءه:

"أن تدخلني ربي الجنة هذا أقصى ما أتمنى"

ينام مجاهد في حضنها الدافئ وهو ابن العشرين ربيعاً ويقول لها:

- تخيلي يا أمه أنني أموت شهيداً في سبيل الله

- كفأك شقاوة يا حبيبي أنت كبرت وبدي أفرح فيك

- (يضحك) تفرحين بي في الجنة إن شاء الله

- (تبتسم وتقبله قبلتين) الله يرضى عنك يا بني

- إذن موافقة (يقول بصوت عال ويقفز من حضنها ويقبلها ويمرغ شفتيه على خديها وصدرها وتنسكب دموعها وتجمع الأم دموعها ودموع ابنها بيديها ثم تمسح وجهها ووجهه بخطة من دموعهما).

تتذكر كيف جاءها المهنئون والمهنئات من كل حدب وصوب يحملون في قلوبهم الحب والغيرة وربما الحسد، ما أسعدها أم مجاهد، ها هي تقدم ابنها شهيدا

- مبروك يا أم الشهيد

- الله يبارك فيكم وعقبال كل مشتهي وكل مشتهية

- الله يجمع بينكم في الجنة إن شاء الله

- مين قدها... أم مجاهد!!!

- يا ريت واحد من أولادي يستشهد

- والله ابني الثاني "أحمد" كل يوم يقولي أنه رايح يستشهد

- يا أختي بيكفيكي واحد، خلي لغيرك

تتذكر كيف حبات المطر تنزل من السماء فترسم على الأرض لوحات من الجمال الخلاب يتيه فيها الشعراء والأدباء ويشرب منها الفلاحون ويزرعون ويتمايلون في جنات حقولهم ونسماتها الفواحة تملأ الكون.

ترى ما وجه الشبه بين الدموع والمطر؟؟

هل الدموع ترسم الفرحة على عيون الأطفال وعلى وجنات الوطن الجريح؟؟

هل صحيح أن الدموع تروي قبور الشهداء؟؟
هل صحيح أن دم الشهداء يروي الأرض؟؟
هل صحيح أن دم الشهداء ينبت براعم الشهداء القادمين؟؟

تنظر إلى زوجها الذي يتقلب في فراشه يمينا وشمالا، يذكر الله، يستغفره،
تضع يدها اليمنى على جبينه، تقرأ آية الكرسي والفاتحة والمعوذتين حتى
ينام أبو مجاهد ليستيقظ عند الفجر ويبدأ يوما جديدا من الكد والسعي
وراء الرزق

وبينما هي تتاجي ابنها "مجاهد" ودم الشهداء وتقرأ القرآن في شريط
متواصل، بعد منتصف الليل بقليل تسمع صوت رصاص وانفجارا ضخما
يهز القرية بأكملها.

ذهبت إلى غرفة ابنها أحمد، ويا للمفاجأة أحمد ليس في فراشه؟؟؟

- أين هو؟؟

- تجيب على نفسها: استشهد... أشهد أن لا إله إلا الله، ولا حول ولا قوة
إلا بالله، إنا لله وإنا إليه راجعون.

شرعت تدور في ساحة البيت، تسبّح وتوحّد وتهلّل ، تبحث عن
زغروتها الثانية، فتشت عنها في كل مكان
في فراش أحمد،
في بقايا وأصداء زغروتها الأولى،

في حنجرتها وبقايا من صوتها،
في ضوء القمر، في النجوم، في الثرى،
في جدران البيت، في شوارع الحارة

دق الباب... أسرع... فتحت وقلبها هناك عند زغروبتها الأولى
- أزررد زغروبتى الثانية؟؟ -
- نعم يا أماه هنيئا لكم ولأحمد الشهادة

انطلقت الزغردة الثانية
تعانق الزغردة الأولى
في سماء الوطن

وزرعتُ روجي

جلست وحدي في دجى ليلة ليلاء، كما هي عادتي بعد وفاة والدي وجدي (رحمهما الله)، في ظل غيمة سكنت فوق رأسي فلم تغادرني حتى أوشك الصبح أن يتبدى، وهنا اقتربت مني الغيمة حتى لم يكن بيني وبينها سوى شبر أو شبرين، تملكني خوف شديد وهي تقترب مني، حتى قلت في نفسي: أهرب وأتركها، أتوارى خلف نجمة تطل علي بعينها اللامعتين من ثقب صغير في الغيمة. حاولت اختراق الثقب جهدي، قفزت إلى أعلى، ضمنتني الغيمة بيديها إلى صدرها، أمسكت بي ولم يعد لي مفر أن أتركها، أو حتى أحاول إلى ذلك سبيلا، ظلت الغيمة تضمني وبدأت ترتفع رويدا رويدا، قلت ويحك إلى أين تذهبين بي؟، لي هنا خيمة وروح وزيتونة، من يرعاها؟؟؟

ضحكت الغيمة وقالت ألا تعرف إلى أين؟؟؟ سأحملك إلى بيارة البرتقال في يافا!!! بيارة أبيك وجدك، تقطف منها برتقالتين ووردتين وكأسين من العصير المصفى، ثم أحملك وتعود إلى هنا، أو إذا أردت أن تبقى هناك، فلك ذلك.

وما هي إلا ثوان بتوقيتي أو بتوقيت الغيمة حتى وجدت نفسي أحط في
بيارة عظيمة تمتد في كل مكان، أوراقها الخضراء الداكنة وأغصانها التي
تعانق الندى والغيمة، حبات البرتقال الذهبية، المدلاة كقروط في أذان
حسناوات يرتدين أجمل الحلل، لثمت الأرض... أكلت من رملها
الذهبي... شربت من حبات الندى المتكدسة على الأوراق النازفة والرمل
سكبت عيوني دموعا كنهريين يفيضان من شدة المطر، وجدت نفسي في
مكان كنت أحلم يوما أن أكون به، وها أنا اليوم أمرغ جسدي فيه... أنها
كان أبي يصول ويجول ويحرث الأرض ويزرع الشجر؟؟؟ أنها كان
جدي يمتطي ظهر حصانه ويدور حول البيارة يحميها ويمسح العرق عن
جبينها والقدى عن عينها أنها كانت جدتي تحبز الخبز الدافئ الجميل...
أنها كانت تطحن القمح والعدس بطاحونة الحجر يا إلهي هذا هو بيتهم...
يا إلهي وهذه هي الطاحونة وهذا مربوط الفرس... رياه أين أنا؟ أحيقة أم
حلم؟؟ أليل أم نهار؟؟ غرقت في نفسي، هربت من نفسي كي أعرف
نفسي أنا أنا؟؟ من أنا؟؟ هل حقيقة أنني ما زلت على ظهر الأرض أم
هي أحلام العفاريت تأتينا ثم تهرب؟؟؟ إلهي إلهي إلهي
رفعت رأسي وجدت الغيمة تنظر إليّ وتضحك حان وقت الرحيل هل
ترغب في المغادرة؟؟؟ كأنها تقرأ قلبي وروحي ومشاعري!!
انتظر قليلاً سأحمل إليك خيمتك وروحك والزيتونة من هناك!!! ظلت
عيناى معلقتين بها انتظرت أن تذهب لحظات وجدت خيمتي وروحي
وزيتونتي يهبطان من السماء تلقفتهم قبلتهم، لثمتهم، زرعت الخيمة أمام
بيت جدي وزرعت روعي في قلبي والبيارة وزرعت الزيتون أمام
خيمتي وفي بيارتي لنتمو وتكبر في روعي

القبلة الدامية

رسمت بشفتيها الورديتين اتجاه بوصلة القلوب الجديدة،
كثبت بأحمر دمها حرفين عربيين "ش" و"غ"
أصبحت الفراشات والأسماك تسير في هذا الاتجاه
قرطاجة تحمل شمسيتها في آذار متجهة نحو النهرين الجميلين لعلها تصل
قبل حلول القيظ،
تمردت الدبابير وحشدت كل أصواتها ولم تعترف بالبوصلة الجديدة،
حاولت استمالة بعض الفراشات وعدتها بـ"قبلات" و"ماكياج" و"جبس"
وعمليات تجميل في "الوجه" و"القفا"
اجتازت الدبابير "البحر" تحمل "الغيث" حطت الرحال على ميناء "شفتيها"
عجبا لك!!! لم لا تضعين "أحمر الشفاه" أبقى أحد في العالم "الحر" لا..؟
نظرت وبعينيها كل "كلام الدنيا" ...
شفتاها تنفجران ... تغرق كل الدنيا في "دمها"

الماجدة ذات الضفيرتين

"ماجدة" ذات العينين الزرقاوين تطل بأيقونة جسدها الساحر نحو البحر
فتكسوه زرقه وبهاء وتملاً الكون من عبق العطر الفواح من صدرها
الفارع

ضفيرتاها الحريريّتان الناعمتان تمتدان على ظهرها كنهريّن جميلين
ينسابان راقصين مع نسائم الهواء الحاملة

قبل أن تأوي إلى فراشها كل ليلة، تنظر من شرفتها نحو بحرها الرقراق،
ترسم على ثغره الباسم بشفتيها الورديتين قبلة طويلة، ينصهر فيها
رحاقهما المعسول

تتجمع حول الشفاه المتداخلة نحلات وفراشات وطيور تقرأ معا كتاب
القبل الدافئة... تنتهي القبلة الطويلة أولاً... تنتهي تتعانق النحلات
والفراشات والطيور لتكمل الليل الجميل

ينظر الذئب الماكر إلى العرس الساهر، يبحث عن صيد تحت النخيل
الكثيف يحدث نفسه: آه ه ما أشهى الرحيق في شفتيها!!!! ما أذكى
الحليب في ثديها!!!!

تسدل "ماجدة" ستائر شرفتها المصنوعة من سعف النخيل ذي اللون
الذهبي... تأوي إلى فراشها في براءة الفراشات حولها، يتلفت الذئب...

حوله الفراشات والنحل والطيور تلهو في عناق باب شرفتها، لا يزال
مفتوحا، وثب نحو الشرفة، دخل الغرفة، قفز نحو السرير، غرز مخالبه
في صدرها، غرس أنيابه في شفتيها
وثبت "ماجدة"

صرخت "ماجدة"

سمعت صرختها الفراشات والنحل والطيور، أسرعت نحو الغرفة

يا لهول ما رأيت

"ماجدة" تغرق في دمها، تلف ضفيريتهما بإحكام حول عنقه، تخنق الذئب،

يصرخ الذئب

تهجم عليه النحل، تلسعه، تهجم عليه الطيور، تفقأ عينيه بمناقيرها

تشد "ماجدة" الضفائر حول العنق

يلفظ الذئب آخر أنفاسه

اغْتصاب

"قمر" تملأ كل صباح جرّة الماء من البئر وتسقي أهل الحارة ماءً عذباً
فراثا

وقبيل الغروب تطعم دجاجاتها وتغني أغنية الوداع لشمس الأصيل
فتنصت إليها الطيور قبل أن تأوى إلى أوكارها فتنام على شدوها
يحبها الطيبون والبسطاء في حارتها
ويضمر لها العداة والحسد آخرون
وهي تغني للجميع

ويمكر الحاسدون ويطلبون من الغريب الأمرد حليق الشارب واللحية ذي
العيون الزرقاء أن ينتظرها عند البئر ليكسر جرتها ويلوث طهرها
وأخفوا الغريب ليلتها في بيوتهم وخرج في الصباح يحمل عكازه اللامع
في يده متوجها نحو البئر والحاسدون يتهايمسون وينظرون من تقووب
الأبواب والشبابيك

و"قمر" كعادتها في الصباح تحمل جرّتها على رأسها تمشي كغزالة انحنت
عند البئر لتدلي جرّتها
اقترب منها الغريب دعيني أملاً لك الجرة
ناولته إياها

أمسك الجرّة... استدار... كسر الجرة فوق رأسها
استدارت هي، وجهت إليه ضربة قوية
حاول الهرب فانزلقت قدماء فسقط في البئر

هويتي

قبل بزوغ الشمس، حمل فأسه على كتفه، وضع يده في جيبه، اطمأن أنه يحمل "مصحفه" حيث اعتاد أن يقرأ بعض الآيات عقب أدائه صلاة الظهر في مزرعة الزيتون، تداعبه نسيمات غربية تهب من جهة البحر الذي يطل على القرية بعينيه، تتقاطر على رأسه جواهر الندى الخجولة، تتساب على صفحة جبينه الرقراق،

يحس ببردها سلاما في القلب وروحه، تسير عجالات الندى ببطء جميل مترقصة على شعيرات رمادية تزين لوحة وجهه الصبوح، تتمايل كإبل الصحراء تحمل على كاهلها سنيّ الوهن، لكن بقوة وعنقوان، وها هو اليوم يكاد يودع ثمانين ربيعا قضاها بين زيتوناته، يرببها كأعز وأعلى أبنائه.

ها هو يسير كغزالة تبحث عن وليدها المفقود، يحني ظهره حيناً، يلتقط عودا من حطب، أو مسمارا تائها فكل ذلك ينفع وقت الحاجة، يضع المسامير والأسلاك في جيبه، يسير... يتذكر رؤياه قبل أسبوعين أو حولهما، يوم رأى الشهيد أسامة في منامه-الشباب العابد الرقيق، رآه يسبح في أنهار الجنة ويطير على أشجارها

- شهران فقط هما الباقيان على موعد قطف الزيتون وعصره

- ترى، هل ستكون الأسعار هذا العام متردية كما كانت في الأعوام السابق؟؟

- هل سأعيش لأدرك موسم هذا العام؟؟

أزيز الرصاص يأتي متقطعا من جهة "المغتصبة"، ينحرف "الحاج" إلى يمين الشارع، يتوارى بجذع زيتونة أخيه المرحوم، التي زاد عمرها عن مئة عام، زرعها أبوهما قبل أن تخلق "دنيا هذه الأيام" بينما هو في ذكرياته يصل ابن أخيه صاحب الزيتون ويسلم عليه، أحس أن في الأمر شيئا، حاول أن يخفي عن ابن أخيه أحاسيسه ومشاعره، تذكر رؤياه فقال مبتسما:

- "الله يطرح لك البركة" في هذه الزيتون

- لقد طرحت في العام الماضي خمس عشرة تنكة زيت وهي على "حطة إيدك" لم نبع منها ولو بدرهم واحد

- كان الله في العون، إن شاء الله البركة تيجي هاي السنة

- والله يا عمي الحاج شكلها ما بدها تتحسن ها الدنيا

- إحنا ما علينا إلا نعمل والباقي على الله واللي بتنزله السما بنتلقاه الأرض

- إنها الشجرة المباركة

- "لا شرقية ولا غربية"

- "يكاد زيتها يضيء"

وبينما هما يتجادبان أطراف الحديث ريثما يهدأ أزيز الرصاص الهادر حولهم، كانت أوراق الزيتون المعبقة بالندى تتساقط على رؤوسهم وملابسهم، حبات زيتون جميلة استحمت بماء الندى تضرب رؤوسهم،

يمسك الحاج واحدة منها، يشمها، يقبلها، يضعها في جيبه مع مسامير وغيرها كان يجمعها في طريقه، حبات أخرى تتقاذف حولهم، يجمعون بعضها ويتركون تلك الشقية التي تتصرف كطفلة رشيقة تنط الحبل بساح الدار أو بالقرب من الباب.

ويذكر الحاج حفيدته التي كان ينهرها وهي تلعب بالحبل وترقص لاهية عابثة، طالبا منها أن تأتي معه لتجمع ما تساقط من زيتون قبل موعد "الجد"

لم يهدأ أزيز الرصاص، وبينما هما كذلك، فوجئا بجنود الاحتلال وقطعان المغتصبين يضربون عليهما طوقا شديدا ويطلقون الرصاص من كل حذب وصوب، ويصرخون عليهما:

- "هوية... هوية"

لم يتعود الرجلان على حمل هويتهما الشخصية زادت الصرخات واقترب الجنود وتعالى صوت الرصاص

- "هوية... هوية"

وضع الحاج يده في جيبه، ليس فيها إلا المسامير والأسلاك وبضعة من حبات الزيتون أخرج حبات زيتون من جيبه وقال:

- هذه هويتي

- صرخ المغتصبون بغضب "بنكول هوية" بلكنة غريبة دخيلة

نظر إليهم الحاج وحبات الزيتون بيده

- "أقول هذه هويتي"

وضع يده اليمنى في جيبه وأخرج "المصحف" وقال:

- هذه أيضا هويتي

لم يتمالك المغتصبون أنفسهم
إنهالوا على الرجلين بزخات الرصاص
سال دمهما في كل مكان
روى دمهما الطاهر زيتونة عمرها مائة عام وأكثر
وزخرف دمهما غلاف "مصحف" كريم
رسم الدم لفظ الجلالة "الله" على الغلاف

فهرس

- إهداء 3
- مقدمة 5
- مقاربة نقدية في أدب محمد رمضان 7
- العصفورة 23
- لا تحرجيني 25
- العبداء السوداء 26
- لماذا يا أمي 28
- المعلمة السوداء 30
- الفارس ووشوشات القمر 32
- اللهم أنصرنا على الحمير 35
- حضن الوسادة 36
- مومسات 37
- تهمة القمر 38
- لا سيدتي كلهم شرفاء 39
- نفق العرائس 40
- الريح عارية 41
- دموع قلم 42
- العيون العسلية 44

46	أشلاء عروسين
48	فاطمة
51	أحبهم يا أمي
54	كيف أنال رضا أمي؟
57	الشهيد القادم
60	جوانتنامو
64	حورية
68	خذوني معها
70	عيد العراة
73	من يحاكم البحر
79	قبلة على خدها المرواني
82	السما هي العنوان
83	عراة والألف قبلة
87	أنثى قذرة
90	عطور الفجر
93	دم الزهور
98	الخازوق السابع
101	سبع فضائح رسمية
104	عيناك غابتنا نخيل
106	حينما يعشق الأطفال
111	أمّاه
114	عشيقتي في عيد العشاق

115	سلة الأحلام
118	في حزن أبيها
123	غسالة مونيكا
126	وشوشات الدموع
131	الدبلة الشهيدة
134	الطفلة العارية
138	هدية شارون
141	الوحد الأسود
144	نفق العراة
146	الجنود
149	الطاحونة
153	دم العرائس
156	وردة حمراء
158	العار
160	لوغاريتم النور والبعد العاشر
162	وردة وحجر
165	نور وظلام والبعد العاشر
168	أجسام غريبة
170	ريم
172	زغرودتان
177	وزرعتُ روعي
179	القبلة الدامية

180.....	الماجدة ذات الضفيرتين
182.....	اغتصاب
183.....	هويتي
187.....	الفهرس

من إصدارات رابطة الكتاب والأدباء الفلسطينيين

المؤلف	الإصدار
أ. ناهض الريس	• رواية البيارة الضائعة
أ. د. عبد الخالق العف	• الرنتيسي إنساناً وقائداً وشاعراً
أ. رشما العدلوني	• دراسات في الشعر الفلسطيني المقاوم
أ. د. عبد الخالق العف	• آتيكم بقبس
أ. يونس أبو جراد	• في كل سنبلّة
أ. محمد أبو نصيرة	• اليوم الدراسي النكبة مأساة أرض
مجموعة من الباحثين	